أم الغريب: تخطيط المدن وتطور الحيِّز العام في فلسطين العثمانية

سليم تماري*

تتناول هذه المقالة التحولات الحضرية لثلاث مدن في فلسطين في نهايات الحقبة العثمانية والتي حدثت في سياق سياسة الامتيازات الممنوحة من قبل السلطنة العثمانية للدول الأوروبية ورعاياها المحليين، والإصلاح المحلي والحرب العظمى. تشير «الحداثة الثلاثية» في هذه المقالة إلى الشبكة الإقليمية التي ربطت ثلاثة مراكز حضرية هي يافا (الميناء)، والقدس (العاصمة الإقليمية)، وبئر السبع (الحامية العسكرية الحدودية الجديدة)، وتهدف المقالة أساساً إلى دراسة نمو حيز عام جديد في هذه المدن، نمى فوق بنية مجتمع تقليدي ذا تركيبٍ طائفيّ محلي.

تعتمد الدراسة على العمل النظري الهام الذي أنجزه هانسين وفيليب وفيبر حول المدن الإقليمية العربية في الفترة العثمانية،[١] وهي تستخدم بشكل خاص مقاربتهم بخصوص إنتاج الفضاء الحضري في «التبشير بعملية الممارسة والتفكير والشعور بالمعاصرة الحضرية»، من خلال التفاعل ما بين خصائص البناء (التخطيط البلدي واستثمارات البنية التحتية واحتمالات الحرب) والسلطة (توسع المشهد العام ونشوء مفاهيم المواطنة الحضرية واستبطان الحداثة العثمانية).

في دراسة **الإمبراطورية والمدينة** تم عرض فئتين تحليليتين لهما علاقة بفهمنا للحداثة العثمانية، الأولى هي النقاش حول الاستعمار العثماني في الأقاليم العربية، والذي يشير حسب أسامة مقدسي إلى سياسات المركزية في فترة ما بعد التنظيمات، والتي بدأت خلالها البيروقراطية العثمانية بقولبة الأقاليم على صورة الدولة التركية العثمانية المعاد بناؤها. لقد حلت هذه الدولة الاستعمارية محل الدولة الحميدية السابقة غير المركزية والتابعة، والتي كانت –حسب هذا التحليل- مستبدة، لكنها غير مركزية، ولم تظهر سيطرة تركية عرقية لأنها كانت تحكم بواسطة حكام محليين.[٢] لقد كانت الدولة العثمانية الجديدة مركزية تعمل على التمركز الإداري، وأخذت تؤسس نموذجاً مدينياً اسطنبولياً لتتم محاكاته في الأقاليم المختلفة.[٣] كما أسست هذه الدولة الجديدة رؤية تابعة حول «الآخر» العربي الداخلي الذي يجب أن يكون تحت السيطرة الكولونيالية الجديدة.[٤] يتعلق هذا النقاش بشكل خاص بفهم تخطيط مدينة بئر السبع كما سيتم تبيينه أدناه.

لدينا فئة تحليلية ثانية تثري هذا النقاش، وهي مفهوم «الوكالة» كمفهوم تاريخي صانع للقرار في التحول الحضري. كتب هانسين «على عكس تحليل الباحثة جيليك حول التاريخ المعماري لأسطنبول، فإن العواصم الإقليمية العربية لم تكن مجرد أرضية فارغة تُمثَّل عليها السلطة السياسية، بل لقد صنع سكانها أيضاً إيقاعات التغيير والتكيف الخاصة بهم ضمن توسع وانتشار سلطة الإمبريالية العثمانية».[٥] سيتم معاينة «إيقاعات التغيير والتكيّف» هذه هنا بخصوص النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما بدأ الفضاء العام بالظهور في مدن شرق البحر المتوسط. لقد دفعتلهذا

١ Hanssen, Jens, Thomas Philipp, and Stefan Weber. 2002. *The empire in the city: Arab provincial capitals in the late Ottoman Empire*. Würzburg: Ergon in Kommission. Beirut, 2002

٢ Usama Makdisi «Rethinking Ottoman Imperialism: Modernity, Violence, and the Cultural Logic of Ottoman Reform.» In *The Empire in the City: Arab Provincial Cities in the Ottoman Empire* (2004): 300-330.

٣ Çelik, Zeynep. 2008. *Empire, architecture, and the city: French-Ottoman encounters, 1830-1914*. Seattle: University of Washington Press; 80-81.

٤ Celik, 80-115; Makdisi, 36-39 .

٥ Hanssen et al. p. 19.

* محاضر في جامعة بير زيت - دائرة علم الاجتماع.

الظهور الاستثمارات والخطط الخاصة بالمراكز الحضرية للأقاليم العثمانية، التي غالباً ما أنتجت خصائص مضادة ضمن السيطرة العامة. كان أحد هذه التطورات هو ظهور أشكال جديدة للهوية المدينية، نتجت عن الثورة العثمانية الدستورية الأولى واستبدال الهوية المجتمعية في المدينة.[٦] وقد كان هذا مصحوباً بنمو أشكال جديدة من الاجتماع العام كانت تظهر من خلال انتشار المقاهي العامة والمسارح وصالات الموسيقى والفعاليات الرياضية.

لقد برز مظهر آخر لهذا المشهد العام من خلال بناء الدول الأجنبية مؤسسات حديثة، مستفيدين من الامتيازات التجارية التي فضلت البعثات التجارية الرئيسية في أقاليم السلطنة العثمانية، فبعد هزيمة الحملة المصرية على بلاد الشام وانكفائها عام ١٨٤١ أسست فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وهنغاريا النمساوية وروسيا وألمانيا عدداً كبيراً من المدارس الخاصة بالطوائف المسيحية وخدمات التيليغراف والبريد والبنوك والقواعد التجارية ومؤسسات أخرى. لقد احتوت الامتيازات بشكل ملحوظ نظام رعاية ساهم في الصراع المتنامي حول المواطنة العثمانية من خلال السماح باستقطاب الأقليات العثمانية، وبشكل خاص المواطنين اليهود والمسيحيين والدروز، وأيضاً عدد كبير من المسلمين العرب الذين كانوا يخدمون الدول الأوروبية.

افتراضات استعمارية بخصوص الحداثة الحضرية

غالباً ما كان يتم نسيان هذه الملامح الخاصة بتطور الحضرية العثمانية أو قلبها- أو في بعض الحالات إبطالها حيث بدأت الحكومتان الفرنسية والبريطانية بتشكيل أنظمتهم الخاصة للتحكم بالإدارات المشرقية فيما بعد الحرب العالمية الأولى. لقد تصرف الانتدابان الفرنسي والبريطاني في دمشق وحلب وعمّان وبيروت والقدس كما لو أن التخطيط الحضري يجب أن يبدأ من الصفر.

في حالة فلسطين، وعندما تم استدعاء السير ويليم ماكلين، مخطط ومهندس مدينة الإسكندرية خلال شتاء عام ١٩١٧ لتحضير مخطط لمدينة القدس كان الجيش العثماني ما يزال يقاتل الجيش البريطاني في وادي الأردن وقضاء نابلس. وخلال فترة خمسة أشهر تم تحضير مخطط ماكلين لعام ١٩١٨ وأصبح الأساس لكل مخططات الانتداب الخاصة بالمدينة لاحقاً. وتشمل هذه المخططات مخطط باتريك غيديس لعام ١٩١٩ ومخطط سي. آر. آشبي لعام ١٩٢٢ (المعروف بمخطط جمعية محبي القدس)، ومخطط عام ١٩٣٠ الذي حضّره هينري كيندال، مُخطِّط المدينة الرئيسي في عهد الانتداب، وخلال فترة الإدارة الأردنية للمدينة بعد عام ١٩٤٨. يوجد في مخطط ماكلين «التأسيسي» لعام ١٩١٨، كما طوره غيديس عام ١٩١٩ ومخطط جمعية محبّي القدس لعام ١٩٢٢، عدة مبادئ تخطيطيّة رئيسية تتمثل في تقسيم المدينة إلى ثلاث مناطق «تطوير»، فالمدينة الداخلية داخل الأسوار يجب أن تتم المحافظة عليها ويجب ألا يسمح ببناء أي مباني حديثة فيها، كماأصبحت أسوار المدينة منطقة خضراء، وتشكل حديقة المدينة المركز التاريخي، ويجب أن تنتظم كل التوسعات الحديثة للمدينة في شمالها وغربها.[٧] احتوى المخطط على خطوط عامة عمّمت قوانين بناءجديدة: «لا يجب أن تظهر أي بناية تتجاوز خط أفق جبل الزيتون... وأنه يجب ألا يزيد ارتفاع أية بناية عن١١ متراً.»[٨] لم يكن مسموحا بأية بنايات صناعية، واشترط أن تكون مادة البنايات الخارجية والأسطح من الحجر، أو أن تغطى به.[٩] لقد أصبح مخطط ماكلين مؤشراً على الحداثة الكولونيالية في القدس عازلاً بين ما أصبح مشهوراً كفترة تخطيط مديني لمدينة القدس عن الحقبة السابقة التي كانت سمتها «الإهمال الإداري».[١٠]

كان باتريك غيديس (١٨٥٤- ١٩٣٢) الأكثر طموحاً والأكثر دافعية أيديولوجياً من بين المخططين الثلاث في فترة الانتداب. لقد رأى غيديس التخطيط الحضري للقدس وفلسطين كمخطط إمبريالي متأصل في تجارب التخطيط الاستعماري للمدن في الهند. وعلى خلاف آشبي وماكلين فقد كان غيديس ملتزماً بعمق أيضاً بالمشروع الصهيوني ورأى تخطيط القدس كجزء من مخطط ما أسماه بالإحياء العبري.[١١] لقد كان غيديس بشكل خاص (ولكن أيضاً كيندال وستورس وآشبي) من اللذين أشاروا خلال مراجعتهم للوجود البريطاني في فلسطين إلى نقطة افتراض خاطئ غالباً ما كررها كثيرون، وهي

---

٦ Mutaz M. Qafisheh, «Genesis of Citizenship in Palestine and Israel», *Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem* [En ligne], 21|2010. Accessed January 20, 2012.URL: http://bcrfj.revues.org/index6405.html.

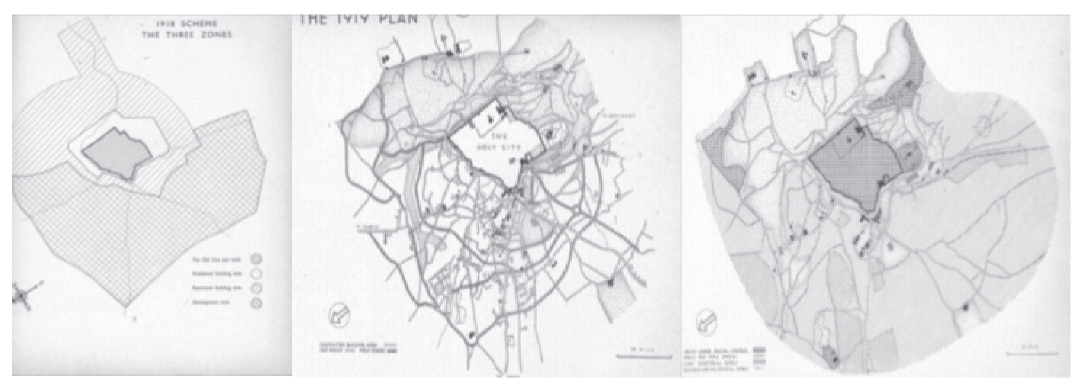
٧ Kendall, p. 6, 8-10.

٨ Kendall, p. 4-5.

٩ Kendall, Ibid.

١٠ لفهم الإهمال العثماني للجانب المدني الخاص بالأقاليم العربية راجع:
Eldem, Edhem, Daniel Goffman, and Bruce Alan Masters. 1999. *The Ottoman city between East and West: Aleppo, Izmir, and Istanbul*. New York: Cambridge University Press, pp. 204, 209. For an earlier view of Palestine see Obenzinger, Hilton. 1999. *American Palestine: Melville, Twain, and the Holy Land mania*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, pp 244-245.

١١ Hysler-Rubin, Noah. 2006. *Patrick Geddes, town planner in the colonies: a comparative study of his work in Britain, in India and in Palestine*. [Jerusalem]: [s.n.], p. 240-241.



المخططات الانتدابية المبكرة للقدس: ماكلين ١٩١٨؛ آشبي ١٩١٩؛ وغيديس ١٩٢٢.

تحديداً أن العثمانيين قد تركوا البلد دون أي برامج تخطيط مديني، وأنه يتوجب على الإدارة الاستعمارية البريطانية أن تبدأ من نقطة الصفر،[١٢] وقد تم إرجاع الكثير من برامج التخطيط الحضري في سوريا ولبنان وفلسطين لاحقاً إلى فترات الانتداب، على افتراض أن العثمانيين تركوا مشهداً فارغاً في المناطق المحتلة، وكما وضعها بجدارة فاينسنت ليمَير، «...قبل سنوات استنتج التاريخ التقليدي أن الحكام العثمانيين لم يكونوا قادرين على تحديث الشبكات الحضرية. لقد توحدت الأيديولوجية الاستعمارية الخاصة بالانتداب البريطاني مع الخطاب الصهيوني الرافض لصورة الفترة العثمانية كمشروع تحديثي...، هذه الصورة المتبناة عن رؤيا مقولبة عن العرب والأتراك ومتبلورة في مقولات من مثل «الشرق الجامد والمعقد» و»الغفوة الطويلة للقدس ما بين ١٥١٧-١٩١٧.»[١٣] على أنّ عدداً من مؤرخي التمدن، بداية بأندريه رايموند في عمله **مدن عربية في الحقبة العثمانية**، ومن ثمّ زينب جيليك في عملها «**العمارة والمدينة**»، تحدّوا هذه الادعاءات حول الإهمال العثماني للمدن الإقليمية بشكل فاعل.[١٤] كما يجب التأكيد أيضاً على أنّه رغم الاصالة المفترضة للمعايير الانتدابية الخاصة بتخطيط القدس ومدن أخرى في فلسطين، فإن كل معالمها الرئيسية –كما سنرى- تبنتها الإدارة العثمانية لسوريا ومتصرفية القدس الشريف، بعد تبني المرسوم البلدي الإقليمي في أكتوبر ١٨٧٧ م، والذي حدد «السلطة والاختصاص والميزانية والحدود القانونية الخاصة بالبلدية».[١٥]

يتضح كون فلسطين إقليماً جغرافياً بارزاً ضمن الحدود العثمانية الجنوبية، رغم أنها لم تكن مرسّمة إدارياً، من خلال رسم الخرائط العثمانية والخدمات البريدية والمنشورات التوضيحية العسكرية مثل رسالة فلسطين (فلسطين ريساله سي)[١٦] الحكومية التي أصدرتها القيادة العسكرية للضباط في الميدان.[١٧] لقد

---

١٢ راجع على سبيل المثال:
Kendall, Henry. 1948. *Jerusalem, the city plan; preservation and development during the, 1918-1948*. London: H.M. Stationery Office, p. 4; See also Ayalon, Ami. 2004. *Reading Palestine: printing and literacy, 1900-1948*. Austin: University of Texas Press, p.3. The latter work refers to 'building from scratch' by the Mandate authorities in reference to educational institutions.

١٣ Vincent Lemire, «Water in Jerusalem at the End of the Ottoman Period (1850-1920)», *Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem* [En ligne], 7/2000, mis en ligne le 13 mars 2008, Consulté le 12 janvier 2012. URL: http://bcrfj.revues.org/index2572.html, pp13-14

١٤ Raymond, André. 2002. *Arab cities in the Ottoman period: Cairo, Syria, and the Maghreb*. Aldershot, Hampshire, Great Britain: Ashgate/Variorum. See especially "The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns" (17-34) and "Islamic City, Arab City: Orientalist Myths and Recent Views" (1-16). Also Çelik, Zeynep. 2008.

١٥ راجع:
Mazza, Roberto. 2009. *Jerusalem From the Ottomans to the British*. London: I.B.Tauris & Co. Ltd. P. 23-24; and Hala Fattah, «Planning, Building and Populating Jerusalem in the Ottoman Period», 1999, www.jerusalemites.org/jerusalem/ottoman/7.htm.

١٦ Kolordu [Ottoman Eighth Army Corps], *Filistin Risalesi*, (Kudüs, Military Press, Jerusalem1331/1915).

١٧ بخصوص الحدود العثمانية الخاصة ب «فلسطين» راجع:
Alexander Scholch "Palestine as an Historical-Geographical and Administrative Entity" in Schölch, Alexander. 1993. *Palestine in transformation, 1856-1882: studies in social, economic, and political development*. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, pp. 9-17;
وحول فلسطين في تاريخ البريد العثماني راجع:

كانت كل هذه تشير إلى فلسطين كإقليم يقع إلى جنوب ولاية بيروت. في معظم فترة التنظيمات كانت فلسطين منطقة تطابق بشكل أو بآخر إقليم سنجق القدس، وبعد عام ١٨٧٤ م أصبحت إقليماً مستقلاً (متصرفية)، بمكانة خاصة تحت مسؤولية الباب العالي مباشرة. خلال الحرب العالمية الأولى بدأ الجيش العثماني باستخدام مصطلح «فلسطين» لمنطقة أوسع تطابق منطقة فلسطين الانتدابية، وتشمل مناطق نابلس وعكا وأجزاء من جنوب لبنان.[١٨] لأغراض هذه المقالة سنستخدم تعبير فلسطين للإشارة إلى سوريا الجنوبية –وهي المنطقة التي تطورت لتصبح جناحاً جنوبياً للإمبراطورية خلال حرب البلقان (١٩١٢- ١٩١٣ م) والحرب العظمى (١٩١٤- ١٩١٨ م).

لقد شكلت المدن الثلاث، القدس ويافا وبئر السبع، وحدة هامة في التخطيط العثماني الاستراتيجي، فبالنسبة ليافا تم ربطها كمدينة ميناء بالمناطق المختلفة من الأراضي المقدسة عبر طرق عربات النقل والسكة الحديدية، وأصبحت بوابة للحج والتجارة الأوروبية نتيجة تطور زراعة الحمضيات وصناعة الصابون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وبالنسبة للقدس فقد كانت أصلاً عاصمة لسنجق القدس الشريف، ومقراً لأهم محكمة شرعية في الإقليم، مع وجود المتصرف (الحاكم)، ومركز يجسِّد الامتيازات الأوروبية الرئيسية والتي عبرت عن نفسها في استثمارات مدينية رئيسية كالمدارس والمستشفيات والبنوك والارتباطات القنصلية والخدمات البريدية. أما بئر السبع فقد كانت المدينة العثمانية الجديدة التي خططت عام ١٩٠٠ م لتصبح مركز التوطين الزراعي للقبائل البدوية وسوقاً مركزياً لمنتوج الحبوب في جنوبي سوريا. لقد جاء ربط المدن الثلاث ضمن امتداد خطوط السكة الحديدية الحجازية، فالخط ما بين دمشق والمدينة ربط يافا بالقدس عام ١٨٩٢ م، كما ربط يافا باللد وبخط بئر السبع الذي أكمله جمال باشا خلال الحرب عام ١٩١٥ م.

شهد النصف الثاني من القرن العشرين توضيحاً هاماً للعلاقة بين السلطة المركزية للإمبراطورية العثمانية ومراكزها الإقليمية العربية. لقد حدث هذا بشكل رئيسي بسبب الخوف من فقدان هذه الأطراف بعد الحملة المصرية التي قادها إبراهيم باشا (١٨٣١-١٨٤١ م) ونجاح الحركات الانفصالية في الأقاليم الرومية، وفقدان

Koleksiyonu, Alexander, and Kemal Giray. 2004. *Ottoman post in Palestine 1840-1918: the economic and social history foundation of Turkey*. Istanbul: Turkiye Ekonomik ve Toplumsal Tarih Vakfi;

وحول تحولات رسم الخرائط العثمانية راجع:

Salim Tamari, Shifting Ottoman Conceptions of Palestine: Cartography and Ethnography, in *Jerusalem Quarterly 49*: Winter 2011.

١٨ Kolordu, *Filistin Risalesi*, 1331 Mali



اليونان وبلغاريا ومناطق أخرى. وعلى طول شرقي البحر المتوسط فإن المدن الساحلية مثل إزمير وبيروت ويافا كانت أصلاً في صلب النمو الحقيقي والتنوع الذي دفعت إليه التجارة المتوسطية، والاستثمارات الأجنبية، ومجتمعات الأجانب والأقليات المحلية المستفيدة من الامتيازات. لقد أعطى هذا النمو في المدن الساحلية الشامية انطباعاً بأن الحداثة العثمانية الخاصة بهذه المدن قد حدثت خارج سيطرة الدولة المركزية في اسطنبول وأن المدن الداخلية في الساحل السوري كدمشق ونابلس والقدس ظلت ثابتة ومحافظة وغير متغيرة. كما تم أيضاً تعزيز هذه الرؤية الخاصة بالعقم العثماني، ولاحقاً إرجاع التطور الحضري للاستثمارات الأجنبية خلال الحكم العثماني المتأخر من قبل التأريخ القومي، بشقيه العربي والتركي، والذي طمس كثيراً من الإنجازات العثمانية، وليس فقط قضايا التطور الحضري ما بين نهاية الحملة المصرية والحرب العالمية الأولى، والتي سيتم مناقشتها في هذه المقالة لاحقاً.

أظهرت البحوث الأخيرة مخططات عثمانية هامة للتخطيط والتطور الحضري في كل من مدن الداخل والساحل. لقد أكملت هذه المخططات وتمَّمت النمو الحضري الذي ينسب إلى الاستثمارات الرأسمالية الأوروبية والأقليات العرقية التي استفادت من نظام الامتيازات. ساهم عمل الباحثة التركية زينب جيليك الهام حول عمارة الإمبراطورية العثمانية في فهمنا لهذه التطورات الحضرية الخاصة بنهاية القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن عملها يركز على التفاعل ما بين التخطيط الحضري الاستعماري الفرنسي في شمال إفريقيا والمخططات الحضرية العثمانية الموازية لها في سوريا وليبيا، فإنّ هناك الكثير مما يتوجب إزالته من

مفاهيم الفراغ المكاني التي توجب على القوى الأوروبية تطويرها بعد الحرب العالمية الأولى. كما وضّحت جيليك كيف شكلت ووحدت الاستثمارات الحضرية العثمانية البنية التحتية والعمارة السلطانية الاحتفالية، مثل الساحات العامة والسبيل وقاعات المدن وأبراج الساعات، نمطاً عثمانياً في الأقاليم العربية مستخدمةً نموذج التخطيط الحضري الاسطنبولي. يصف ستيفان فيبر وفي منحىً مشابه كيف أن «العواصم الإقليمية العربية كانت مكاناً لوجود ظواهر عمرانية واسعة النطاق في الفترة العثمانية. فلقد أوجدت المباني الإدارية المستقلة والنصب التذكارية والشوارع الواسعة والميادين الفاخرة مفردات لتناسق وانتظام وقانون عثماني خاص شكل الإدارة اليومية فيما يتعلق بالأسواق والنقابات والعائلات والشبكات المحلية والإقليمية والدولية. وفي نفس الوقت كانت هذه المدن رأس حربة للتطلعات الأجنبية في المنطقة. لقد أنشأت البعثات التبشيرية والمدارس والقنصليات والفنادق والبنوك وشركات التأمين والسياحة مكاتب رئيسية لها في هذه العواصم الإقليمية، كما أنشأت فروعاً في المدن الثانوية ووكالات محلية في البلدات الأصغر.»[١٩] إنّ أول ظهور لمخططات التطوير الحضري كان لبيروت (١٨٧٦، ١٨٨٣ م)، فطرابلس الغرب (١٨٨٣ م)، فدمشق (١٨٨٥ م)، وتبعت باقي المراكز الإقليمية لاحقاً.[٢٠] تضمنت هذه المخططات مشاريع ضخمة ومتنوعة لصروح عامة ومحطات ومباني حكومية . كانت مخططات عام ١٩٠١ م الخاصة باحتفالات الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش مناسبة لإطلاق عدد من هذه المشاريع. تمثل كم كبير من مخططات التطوير العثماني باستثمارات في تحديث البنية التحتية العسكرية للدولة حيث اشتملت على تطوير خطوط سكة الحديد والتلغراف. كما تم تأسيس ثكنات عسكرية نمطية ومدارس سلطانية عسكرية ومراكز شرطة (كاراكول خانات) وشبكات طرق عبر الأقاليم العربية لمواكبة التحديات العسكرية والاقتصادية المنبثقة من التصميمات الإمبراطورية المصرية والأوروبية.[٢١]

شبكة التكامل الثلاثي للحداثة الحضرية في أراضٍ حدودية

كانت فلسطين إقليماً مركزياً وهامشياً في نفس الوقت في الاعتبارات العثمانية المركزية. لقد كانت إقليماً هامشياً بمعنى أنها تشكل الحدود الجنوبية لأقاليم سوريا ولا تنتج بشكل مبدئي دخلاً ضريبياً هاماً، ولم تكن تقع بشكل استراتيجي على خط الحج باتجاه الحجاز. لكن وبعد خسارة السلطنة لمنطقة مصر في منتصف القرن أصبحت بوابة لمنطقة السويس وإفريقيا العثمانية. كما أثارت الحملة المصرية على بلاد الشام الاستعدادات العثمانية الدفاعية في أقاليمها الجنوبية بما فيها اليمن والحجاز. وقد ترافق هذا الأمر مع ازدياد التنافس للسيطرة على فلسطين من القوى الأوروبية الطامحة لتعزيز وجودها في القدس والأماكن المقدسة. يمكن التدليل على التغيير العثماني والأهمية المتزايدة لفلسطين من خلال تحول الإشارة إلى اسم المنطقة من شام شريف («سوريا الشريفة») في خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر (بيري ريسي وكاتب جلبي)، إلى قدس شريف («القدس الشريف»).[٢٢] ورغم أن فلسطين لم تكن وحدة إدارية منفصلة ضمن هذه التقسيمات، فقد كان يتم الإشارة إليها عادةً بوضوح كفلسطين أو فليسطان في تلك الخرائط (منذ بداية بالقرن السادس عشر)، وبحيث تكوّن إقليم يمتد من جبال الجليل إلى شبه جزيرة سيناء. وبعد تبني حدود إدارية وضعت في الأطلس الجديد (١٨٠٣ م) انكمشت فلسطين إلى منطقة جنوبي إقليم نابلس.[٢٣] لقد أصبحت فلسطين مكافئة، بشكل أكبر أو أقل، لسنجق القدس (وبعد ١٨٧٦ م المتصرفية). بشكل أساسي أصبحت فلسطين الإقليم الجنوبي من سوريا.

شهدت حواضر فلسطين كما غيرها من المناطق السورية، بالتزامن مع المركزية المتزايدة والسيطرة التي مارستها أجهزة دولة التنظيمات، نمواً وإعادة تشكيل للحيِّز العام. اشتملت هذه العملية على إنشاء ميادين عامة لغرض العروض العسكرية وأداء المراسيم السلطانية، كما رافق هذا أيضاً إنشاء الميادين البرجوازية الخاصة بالحياة الاجتماعية للطبقة الوسطى الجديدة: المنتزهات والمقاهي والحدائق العامة التي بدأ بالاستفادة منها كلا الجنسين. كما شهدت تراجع المحلي كوحدة مجتمعية أساسية للسيطرة الاجتماعية واستبدالها بشبكات المدينة الإدارية الواسعة. يتفحص فيردين إيرغوت هذه العملية

١٩ Introduction, in Hanssen, Jens, Thomas Philipp, and Stefan Weber. 2002.*The empire in the city: Arab provincial capitals in the late Ottoman Empire*. Würzburg: Ergon in Kommission. Beirut, 2002, p. 17.

٢٠ Çelik; plans can be found following p. 23.

٢١ Celik, Zeynip; 163-169.

٢٢ Salim Tamari, 2011. Shifting Ottoman Conceptions of Palestine, *The Jerusalem Quarterly*, Issues 47-48.

٢٣ Tamari, Salim. 2011."Shifting Ottoman Conceptions of Palestine-Part 2: Ethnography and Cartography", *Jerusalem Quarterly* 48: 10-13.

في سياق الممارسات البوليسية والرقابية الجديدة في الدولة العثمانية.[٢٤] ساهم هذا التطور التطفلي بشكل مهم في إعادة تعريف المجال العام وعدم وضوح الخطوط الفاصلة بين ما كان يعتبر مجالات خاصة وعامة. لقد تم الإعلان من خلال نصوص المعايير الإدارية عن محاربة «الانحراف» العام مثل قانون التشرد، والدور المتزايد للشرطة في إصدار التراخيص التجارية وفي مراقبة ومعاقبة ما كان يعتبر سابقاً سلوكاً خاصاً، لكنه يحمل الآن عنوان «الجرائم العامة».[٢٥] لقد كان «التشرد» ذاته جريمة جديدة ظهرت نتيجة الفقر المدقع في المدن والهجرة من الريف إلى المدينة والتفاوت الطبقي. في السابق كان يتم التعامل مع هذه «الانحرافات» بشكل معياري محلياً من قبل الإمام المحلي أو القاضي.[٢٦] غالباً ما كان يتم التعامل مع «السلوك غير اللائق» أو الخروج عن الحدود المعروفة من قبل القبضايات المحليين.[٢٧] الآن وبشكل متزايد تم تسليم مهمات الرقابة السلوكية في المدن وإدارة الأمور إلى الشرطة، وإلى منصب مختار الحي المستحدث.[٢٨]

سنعالج أدناه التطوير الحضري الإقليمي الذي شكل ما أسميه «شبكة تكامل ثلاثي للحداثة الحضرية»، لأشير إلى أنهم اشتركوا في تخطيط هادف لذلك وتوحيده إقليمياً لخدمة رؤية جديدة لتطوير الحدود الشامية للسلطنة وتخومها الجنوبية. تم تطوير هذه التوجهات الحضرية من خلال ثلاث تطورات جديدة هامة قريباً من بداية القرن العشرين: الطرق وسكة الحديد التي تربط القدس بيافا التي تعتبر الميناء الخاص بالقدس، وذلك من أجل خدمة الخدمات المتزايدة التي يشكلها الحج إلى الأراضي المقدسة، وتسويق البضائع الزراعية الفلسطينية والسورية التي تذهب إلى السوق الأوروبية بمزيد من الحمضيات (محصول ساحلي) والصابون (صنف محلي يعتمد على زيتون المرتفعات) كبضائع رئيسية تربط فلسطين بأوروبا، وأخيراً، أهمية فلسطين المتزايدة كأراض حدودية في الدفاع عن السلطنة العثمانية من الجنوب، وروابطها بمصر التي سيطرت عليها بريطانيا. لا شك أن هذه التطورات الإقليمية قد خلقت حداثة إشكالية. في المدن الثلاث المدروسة، اشتملت عملية النمو على تمييز داخلي وتفاوت إقليمي. لقد أعطى تعزيز القدس كعاصمة لإقليم القدس الشريف عام ١٨٧٦ م أهمية ومكانة وقوة جديدة لأشراف المدينة وجهازها الإداري مقابل النخب الإقليمية بطريقة لم يسبق لها مثيل. كما حجبت المركزية المتزايدة للقوى البيروقراطية التي رافقت إصلاحات التنظيمات المكانة الإقليمية لعكا ونابلس. لكن في حالة يافا فقد اتخذ التفاوت الإقليمي مساراً آخراً.

يافا : مدينة الغرباء

تعتبر يافا المعاصرة مدينة عثمانية بامتياز. فقد بناها محمد أبو نبّوت آغا بعد الدمار الذي عانت منه نتيجة الطاعون وجيش نابليون عام ١٨٨٠ م. لقد قصد الحاكم العثماني أبو نبوت (١٨٠٧-١٨١٩ م) إنشاء مدينة بحرية تخدم الأماكن المقدسة وتنافس ميناء عكا وراعيه الجزار باشا.[٢٩] بعد إكمال تحصينات المدينة، بدء الجزار برنامجاً طموحاً للبناء، حيث تم خلاله إنشاء الطرق الرئيسية في المدينة وشمل سوقين وخانين ومخازن للميناء وعدداً من الصناعات الخفيفة. لقد استخدم موقعه كمدير للملكيات الوقفية الدينية لدمج الأملاك العامة تحت إدارة الوقف، حيث بنى المسجد الكبير وعدة «سبل» (مصدر ماء عمومي). بني السبيل الرئيسي في حديقة بلدية عامة، وما زال يحمل اسم أبو نبوت حين يومنا هذا. وكان ذلك ضمن حالة الأمن العام والانتعاش التجاري في يافا تحت حكم أبو نبوت حيث بدأت يافا تجتذب التجار والحرفيين، وقد حصلت على اسم «أم الغريب» مما يدل على ترحابها بالقادمين الجدد.[٣٠] لقد جعل اكتمال هذه المباني البارزة أبو نبوت يعرف بأنه الحاكم الفعلي لجنوبي فلسطين.[٣١]

خلال الإدارة المصرية للمدينة (١٨٣١-١٨٤٠ م) نفّذ إبراهيم باشا عدداً من المخططات الهندسية. كان الهدف من أحد هذه المخططات تحسين مرافق الميناء من خلال مشروع غير مكتمل هدف لإنشاء ميناء داخلي في البصّة من خلال ربطها بالميناء الخارجي من خلال قناة. أنشأ إبراهيم باشا عدداً من «الضواحي العسكرية» لجيشه

٢٤ *Ergut ,F» .2007 .Surveillance and the Transformation of Public Sphere in the Ottoman Empire .«METU STUDIES IN DEVELOPMENT. 34 (2): 173-194.*

٢٥ *Ergut, p. 175.*

٢٦ Ergut, p. 185.

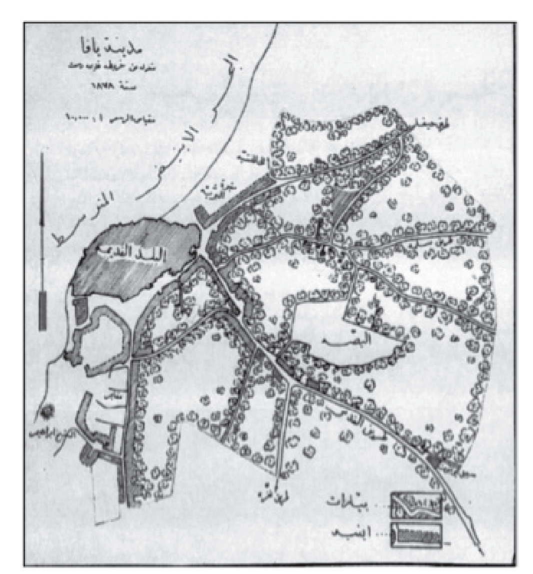
٢٧ *Philip Khoury "Abu Ali al Kilani: A Damascus Qabaday" in, Burke, Edmund. 1993. Struggle and survival in the modern Middle East. Berkeley: University of California Press. Pp. 155-158.*

٢٨ Ergut, 178.

٢٩ Kana'an, Ruba. 2001. «Waqf, Architecture, and Political Self-Fashioning: The Construction of the Great Mosque of Jaffa by Muhammad Aga Abu Nabbut». *Muqarnas*. 18: 120-140.

٣٠ Mark Levine, in Monterescu, Daniel, and Dan Rabinowitz. 2007. *Mixed towns, trapped communities: historical narratives, spatial dynamics, gender relations and cultural encounters in Palestinian-Israeli towns*. Aldershot: Ashgate, p. 283

٣١ Kana'an, p. 132.



مخطط مدينة يافا ١٨٧٨. المصدر: علي المليجي مسعود.

في أبو كبير والنزهة ودرويش والتي أصبحت ضواحي للطبقة العاملة ضمت عدداً كبيراً من السكان المصريين بعد انسحاب الجيش الخديوي.[٣٢] لكن التحول الحضري الرئيسي ليافا الحديثة حصل بعد تبني المرسوم البلدي العثماني لعام ١٨٧٧ م. لقد قاد هذا الأمر لإزالة أسوار وخنادق المدينة (١٨٧٩-١٨٨٨ م)، وبناء ضاحية الشيخ إبراهيم العجمي الراقية، وتوسيع الميناء وأحواضه، وبناء مركز جمركي.[٣٣] (تظهر الخارطة أعلاه التوسع الحضري الجديد للمدينة والروابط التي أنشئت من خلال المرسوم ما بين منطقة الميناء وضواحي البساتين الجديدة في البصة والعجمي).

تم تأسيس حي المنشية عام ١٨٩٢ م لإسكان عمّال وتقنيي السكك الحديدية، وشهد هذا العام أيضاً بناء خط يافا القدس، وهو خط السكة الحديدية الأول في فلسطين.[٣٤]

مع تعيينه كمدعٍ عام للمدينة عام ١٩١٢ لاحظ يوسف الحكيم، وهو مدّعي عام وقاضي سوري من اللاذقية، التناقض بين الهيمنة الاقتصادية ليافا وتبعيتها السياسية للقدس: «فعلياً يافا أضخم من معظم مراكز المناطق في السلطنة العثمانية. وتبرز أهميتها الاقتصادية من كونها الميناء الوحيد للقدس، ترتبط بها بخط سكة حديد رئيسي بقاعدة تجارية هامة وفائض زراعي ضخم، إذ تشمل صادراتها إلى إنجلترا وحدها مليوني صندوق من محصول برتقالها الشهير، لكن اقتصادها الداخلي مربوط أيضاً بمنطقة نابلس، والتي تعتبر إدارياً جزءاً من إقليم بيروت. كيفما تم التعامل مع الأمر يجب أن تكون يافا مركزاً للمتصرفية، هذا إذا لم يكن هذا بسبب كونها تابعة لحاكم القدس الذي يتبع بدوره مباشرة لوزارة الداخلية في الآستانة. رغم هذا فقد انتبهت الحكومة العثمانية لتفوق يافا من خلال جعلها مقراً لمحكمة خاصة بالدعاوى التجارية إلى جانب محكمة يافا العليا الجديدة الخاصة بالقضايا الجنائية. كما ضمت يافا أيضاً الأقسام الإدارية الرئيسية في لواء القدس، إلى جانب كونها مركزاً لقيادة الجيش السلطاني النظامي.»[٣٥] كانت يافا قد أصبحت قبل الحرب مقراً لصحف الإقليم الرئيسية والاتحادات التجارية والمسارح والأحزاب السياسية الناشئة (حزب الاتحاد والترقي وحزب الوفاق وحزب اللامركزية العثمانية).[٣٦]

على عكس القدس، فإن التخطيط العثماني المبكر ليافا كان مصحوباً بتمييز اجتماعي بارز. لقد جذب التطور في الرأسمالية الزراعية في منتصف القرن قوى عاملة مهمة من المناطق الريفية المهمشة التابعة للمدينة ومن جنوبي فلسطين (بئر السبع والعريش) وحوران أيضاً. أصبحت مناطق الإسكان العسكري في المدينة في الفترة المصرية، أبو كبير وسكنة درويش ضواح للطبقة العاملة في المدينة. في مطلع القرن تطورت المَنشية كمسكن لعمال ومهندسي السكك الحديدية الذي أحضروا لتطوير خط سكة حديد الحجاز ضمن الشراكة العثمانية–الألمانية. لقد تم في يافا (كما في القدس أيضاً) هجران المدينة القديمة بشكل متزايد من قبل طبقة من منظمي الأعمال التجارية والمهنيين الذين تصاعدت مكانتهم والذين بنوا قصوراً فسيحة متأثرين بأنماط معمارية مشابهة في الاسكندرية ومرسيليا وذلك في ضواحي العجمي والنزهة وجباليا. مع بداية الحرب العالمية الأولى بدأ النمو المهم للطبقة العاملة في مجال الحمضيات والسكك الحديدية والانشاءات يعكس نفسه في النضال العمالي ولاحقاً النضال الوطني ضد الصهيونية.

شهدت فترة حكم حسن بك الجابي (١٩١٤-١٩١٧م) دفعة كبيرة أخرى للتمدد الحضري. ورغم أن إرث حسن بك، وهو ضابط دمشقي من الزبداني، ارتبط بقمع الوطنيين العرب، فإن إدارته أولت اهتماماً كبيراً بالبناء العام. لقد بنى الجابي مفترقي طرق رئيسيين، مفترق جمال باشا (سمي على اسم قائد الجيش الرابع والحاكم العسكري العام لفلسطين خلال الحرب)، وجادات النزهة، حيث سمح هذان المفترقان بعبور سهل من منطقة

٣٢ مسعود، علي يوسف المليجي. يافا مشروع التخطيط العام، **مجلة العمارة**، ع ٩ و١٠، ١٩٤٩، ص. ٢٩-٤٠.

٣٣ المصدر السابق، ص. ١١.

٣٤ المصدر السابق، ص. ١١-١٢.

٣٥ الحكيم، يوسف. **سوريا والعهد العثماني**. دار النهار، بيروت، ٩٦٦١، ص. ٢٠٣-٢٠٢ .

٣٦ المصدر السابق، ص. ٢١١-٢١٣.



حسن الجابي، والي يافا العثماني، ١٩١٦. المصدر: مجموعة ماتسون.

الميناء إلى بساتين البرتقال المزدهرة. لقد وسع الميناء مرة أخرى ونفذ عدداً من المشاريع الترميمية لتجميل المدينة التي أصبحت «عاصمة فلسطين»، كما عبر عنها المخطط الحضري المصري علي المليجي مسعود.[٣٧] وبالإضافة إلى توثيق برامج التخطيط العثمانية الخاصة بيافا، فقد أعد مسعود بنفسه مخططاً تفصيلياً للمدينة خلال السنوات الأخيرة للانتداب.

من اللافت أنه تم استدعاء مخطِّطَين بارزين من القاهرة في بداية ونهاية الانتداب البريطاني: الأول كان ماكلين وتم استدعاؤه من قبل حكومة رونالد ستورس العسكرية البريطانية ليقدم مخططاً للقدس، في حين كان الثاني علي المليجي مسعود، إذ قامت بلدية يافا برئاسة يوسف هيكل بتوظيفه ليخطط مستقبل يافا. في ذلك الوقت كانت يافا قد انخرطت في «منافسة حداثية» مع بلدة تل أبيب اليهودية، التي نمت في المناطق الشمالية من يافا كدرة تاج للمشروع الصهيوني. أصبح حي المنشية في يافا، وهو المكان الذي شهد توسيع الطريق الذي قام بإنشائها حسن بك، وشهد بناء أول شبكة سكة حديد في البلاد، خطاً جراحياً فاصلاً ما بين الحداثة الغربية الألمانية في تل أبيب والحداثة المشرقية

٣٧ مسعود، مصدر سابق، ص. ٩.

الشامية العثمانية في يافا.[٣٨] لقد كان أحد أكبر التحديات التي واجهت مخططات مسعود الخاصة بتوسيع يافا، والذي استمر قائماً خلال فترة الانتداب، هو كيفية استيعاب انسداد الفضاء الحضري للمدينة من منشية تل أبيب شمالاً حتى مستعمرة بات يام في الأطراف الجنوبية للمدينة.[٣٩] تم إبراز الحداثة العثمانية لمدينة يافا من خلال إنشاء بنايات سلطانية تحيط ببرج الساعة الشهير وميدانه، بداية بالمسجد الكبير، مسجد أبو نبوت (١٨١٥ م)، ومبنى السراي، والبلدية، وبرج الساعة ذاته (١٩٠٥ م) التي أنشئت احتفالاً بالذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش. ورغم تواضع فخامته مقارنة بأمثاله في العواصم الإقليمية الأخرى (دمشق وحلبٍ وإزمير وبيروت) فقد أصبح ميدان يافا العام محورياً في تجميع سكان المدينة حول النشاطات السياسية والثقافية.

شهدت يافا عام ١٩٠٨ م أول مظاهرة سياسية رئيسية موثقة احتفالاً بنشر الدستور الجديد الذي بشر بما كان يعتقد أنه سيكون انطلاقاً لحرية التجمع والصحافة.[٤٠] خاطب حاكم القدس الإقليمي (المتصرف) الليبرالي علي إكرام بك المظاهرة أمام مبنى السراي الذي عرف بميدان الساعة. كان إكرام بك قد تم تعيينه حديثاً ومارس مهام عمله بحماسة كبيرة كمصلح إداري عثماني وأحد أبطال الدستور الجديد. لقد كان ابن القيادي القومي العثماني والكاتب نامق كمال وكان يشير إلى نفسه بكمال زادة (ابن كمال).[٤١] خلال الفترة الدستورية والمحاولة المتجددة لإعادة تثبيت السلطان عبد الحميد، استخدم إكرام بك الميادين العامة الجديدة في المدن الرئيسية، خاصة يافا والقدس، لتحشيد الناس حول الاهداف الجديدة لنظام الاتحاد والترقي.[٤٢] كما استغل هذه المناسبات ليشير إلى هدفي سياسته: تقليص الهجرة اليهودية ومراقبة ومحاربة صعود العناصر القومية العربية الانفصالية في فلسطين.[٤٣] قبل ذلك كان لإكرام بك دور بارز في استغلال الخطابات العامة في مدينة

٣٨ LeVine, Mark. 2007. «Globalization, Architecture, and Town Planning in a Colonial City: The Case of Jaffa and Tel Aviv». *Journal of World History.* 18 (2): pp. 180-182.

٣٩ مسعود، مصدر سابق، ص. ١٣.

٤٠ Khalidi, Walid. 1984. *Before their diaspora: a photographic history of the Palestinians, 1876-1948*. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, p. 43.

٤١ Campos, Michelle U. 2011. *Ottoman brothers: Muslims, Christians, and Jews in early twentieth-century Palestine*. Stanford, Calif: Stanford University Press, p. 27.

٤٢ Kushner, David, 1996. «Ali Ekrem Bey, Governor of Jerusalem, 1906-1908». *INTERNATIONAL JOURNAL OF MIDDLE EAST STUDIES.* 28 (3): 349-362.

٤٣ Kushner, “Ali Ekrem Bey”, pp. 351-352.

بئر السبع الجديدة لتعزيز الحلفاء المؤيدين للنظام بين البدو.[٤٤] احتفظ المدوِّن واصف جوهرية بهذه الصورة التي يخاطب فيها إكرام بك الحشود في يافا حيث يظهر فيها الآلاف من المواطنين من الفلاحين وسكان المدينة الذين تجمعوا في ميدان الساعة.[٤٥] تمثل الصورة تناقضاً حاداً مع نفس الحدث الاحتفالي الذي حصل في القدس حيث ساد البذخ والشكليات، وحضره القناصل الأوروبيون وأشراف المدينة.[٤٦] أصبح نفس الميدان في السنوات اللاحقة مكاناً لاحتشاد مسيرات عيد العمال، وللمسيرات المضادة للصهيونية التي تحتج على تصريح بلفور ونقطة لانطلاق موكب النبي روبين السنوي.

اشتهر موسم النبي روبين من خلال توجه الجماهير إلى مقام النبي روبين موسمياً إلى المنطقة التي تبعد عشرة كيلومترات جنوبي يافا. لقد تحول المهرجان خلال فترة حكم حسن بك الجابي من طقس ديني خاص بيافا والقرى المحيطة بها إلى حدث حضري دنيوي بارز يحتفل فيه المسيحيون والمسلمون واليهود بنهاية فصل الشتاء ويتوجهون إلى البحر حيث يستمتعون بإجازة من مشاق العمل لمدة شهر كامل. لقد كان حدثاً عاماً منفرداً جلب إليه الفقراء والأغنياء وطوائف دينية متنوعة في احتفال كرنفالي يشمل الرملة واللد ومدينة يافا.[٤٧]

الحديقة العامّة المغيَّبة

يبدو أن واحدة من معالم التخطيط الحضري الانتدابي كانت غائبة من اعتبارات التخطيط العثماني لفلسطين هي الحديقة العامّة و'المدينة الحديقة'، (وقد كانت جدُّ حاضرة في تخطيط آشبي التنظيمي للقدس). وعلى غير ما كان الحال في فلسطين، فقد حظيت المتنزهات العامّة باهتمام وتركيز كبيرين في التخطيط الحضري العثماني المتأخر في الجزائر وطرابلس الغرب (ليبيا)، وبشكل مكثف في دمشق وحلب وبيروت خلال ولاية مدحت باشا منذ بدايات ستينيات القرن التاسع عشر. في بيروت أصبح الميدان العام 'ساحة البرج' (لاحقاً ساحة الشهداء)، مع متنزه الكورنيش، معلمان ورمزان على الحداثة العثمانية، قبل أن تتحول الساحة إلى رمز لطغيان جمال باشا في سنوات الحرب[٤٨]. حمل تطوير مدحت باشا لساحة 'المرجة' في دمشق دات الدلالات الرمزية. لقد كانت 'ساحة المرجة' متصلة بمقاهي وحدائق بردى العامّة من خلال قطار الأنفاق (المترو) الجديد الممتد على طول شارع جمال باشا[٤٩]. لقد كانت هذه المعالم من المناطق الخضراء العامّة غائبة في فلسطين. وكانت نظائرها المتواضعة تشمل حديقة المنشية على طريق يافا بالقدس (ملحقةً بالبلدية منذ ١٩١٢)؛ والمتنزه والحديقة المجاورة لسبيل أبو نبّوت بيافا؛ ومتنزه جمال باشا، المقابل للسراي في بئر السبع، وأنشئت استدراكاً بعد إنشاء الميدان المركزي. تدلل كل هذه الأمثلة على مقدار هامشية وغياب فكرة الحديقة العامّة وإهمالها. كيف نفسِّر هذا الغياب في فلسطين؟

أعتقد أن الجواب لا يكمن في اعتبار الإهمال تفسيراً للأمر، بل في مسألة فهم وإدراك الحاجة لحديقة عامّة والتصور الشعبي لموضع 'المناطق الخضراء' في البلدات المقترنة بالإنتاج الزراعي. لقد كانت المدن الأساسية في فلسطين العثمانية بلدات متوسطة الحجم، حتّى حسب المعايير الشرقية، فبالتأكيد كانت استانبول، وأيضاً حلب، ودمشق وبيروت وإزمير، مدناً أكبر كثيراً من يافا والقدس ونابلس والرملة واللد في نهاية القرن التاسع عشر. بالإضافة لذلك فإنّ مدن الساحل والمدن الداخلية الفلسطينية كانت مدناً زراعيةً، لأنّ المحاصيل النقدية شكلت مصدراً أساسياً ومهماً لدخلها الاقتصادي، مثلما أنها رسمت بنيانها الفيزيائي وشكلها الخارجي. لقد تشكل النمو الحضري في غزة ويافا والرملة واللد وأريحا، منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، ضمن بساتين الحمضيات (البيّارات)، فباستثناء القصبة القديمة في هذه المدن والميناء القديم في يافا، لم تكن البيّارات واقعةً في محيط المدينة وأطرافها، بل كانت جزءاً داخلياً لا يتجزأ من أحياء المدينة السكنية. لقد امتلك العديد من السكان هذه البيارات، أو عمل فيها، أوكان يعيش بالقرب منها. أمّا في البلدات الداخلية، فقد كانت في كثيرمن الأحيان بساتين الزيتون، والكروم جزءاً أساسياً من الاقتصاد في المناطق الحضرية. وينطبق هذا على المدن الكبيرة مثل مدينة الخليل (الكروم)، وفي المدن

٤٤ Kushner, David. 2005. *To be governor of Jerusalem: the city and district during the time of Ali Ekrem Bey, 1906-1908*. Istanbul: Isis Press, 193-198.

٤٥ صورة واصف جوهرية الأصلية تظهر في:
Khalidi, Walid. 1984. *Before their diaspora: a photographic history of the Palestinians, 1876-1948*. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, p. 43.

٤٦ تم اقتباس صورتي جوهرية من قبل:
Campos, Michelle U. 2011. *Ottoman brothers: Muslims, Christians, and Jews in early twentieth-century Palestine*. Stanford, Calif: Stanford University Press, pp. 29 and 32
ويقدم كامبوس صورة ثالثة (صفحة ٣٠)، وهي من مجموعة جمعية الدراسات العربية (القدس)، وتظهر رجالاً ونساءً مجتمعين خارج بوابة يافا ويرفعون الراية العثمانية احتفالاً بالدستور الجديد.

٤٧ لمناقشة أهمية مهرجان النبي روبين راجع:
Tamari, Salim. 2009. *Mountain against the sea: essays on Palestinian society and culture*. Berkeley, CA: University of California Press, pp. 27-31.

٤٨ Celik, pp. 129-130.

٤٩ Celik, p. 99.



المتصرف علي أكرم بيه (فوق العامود) يخطب في جماهير يافا المحتفلة في يوم «الحرية» (تبني الحكم الدستور العثماني) ١٩٠٨.
المصدر: موسسة الدراسات. بيروت

الصغيرة، مثل جنين وطولكرم وقلقيلية (الحمضيات)، أريحا (الموز والحمضيات)، بيت لحم (الزيتون)، رام الله-البيرة (الزيتون). ولربما كانت القدس ونابلس استثناءً في هذا السياق، بمعنى أن الأراضي الزراعية فيها لم تكن واقعةً داخل حدودالمدينة، ولكن كلتا المدينتين كانتا محاصرتان بالبساتين والكروم على نطاق واسع. وجهة نظري هي أن فكرة وجود حديقة عامة، والحاجة المتصورة لمساحة خضراء عامة، كان ينظر إليهما على أنهما غير ضروريتان لمفهوم الحداثة في المناطق الحضرية، حيث أنّه بالفعل عمّت معظم هذه البلدات مناطق خضراء عامّة، بمفهوم الطبيعة الخام والتي لم تكن فقط مفتوحة أمام الجمهور، ولكنها كانت أيضاً مصدراً لمعيشتهم اليومية. لقدشكل إدخال المساحات الخضراء من قبل السلطات البلدية الجديدة، مثل متنزه جمال باشا في مدينة بئر السبع بواسطة علي حاكم بك أكرم، أو حدائق المنشية في القدس من قبل رئيس البلدية فيضي العلمي، تدخلاً نخبوياً ذو طبيعة رمزية، حيث هدف إلى تسهيل الاحتفالات، وتوفير ساحات مناسبة وعملية للمناسبات الرسمية، كما سنرى لاحقاً.

يافا والقدس: مدن في حالة استقطاب؟

ينطلق مفهوم الصراع بين «المدينة الساحلية الحاضرة» والمدينة المقدسة من تقليدين تحليليين، قاد كل منهما إلى تعميمات شعبية ذات أحكام خاطئة. نجد الأول في التمييز العكسي لدى شولتس بين المدينة «الإقطاعية» التي يسيطر عليها البيروقراطيون في الإدارة السلطانية والأشراف المحليون الذين حازوا على قوة وسلطة متزايدة في فترة ما بعد التنظيمات، والمدينة البرجوازية التي تركزت حداثتها في الاستثمارات الأوروبية والحمضيات. يعود التقليد التحليلي الثاني إلى نموذج الصراع الثقافي، الذي وضعت فيه المدينة «المتحررة» ذات الطابع العالمي مقابل مدينة التدين. تم تعزيز النموذج الثاني من خلال خطاب إسرائيلي لاحق مسيطر تمت فيه المقابلة ما بين تل أبيب « الدنيوية والعلمانية» والقدس «الدنيوية والدينية»- وهو خطاب يعود في أصوله إلى العلاقة المضادة للمدينتين من خمسينيات وستينيات القرن العشرين إلى فترة الانتداب والفترة العثمانية المتأخرة. في كلٍ من التقليدين شيء قليل من الحقيقة. وهذا

يستدعي تقييم رونالد ستروس للقدس «كمدينة طفيلية» بالإشارة إلى الهبات المالية ذات الطابع الديني وقاعدتها الاقتصادية غير الإنتاجية.[٥٠] كما يشرح هذان التقليدان الهجرة الجماعية الهامة للمهنيين الشبان من القدس إلى يافا (وبين اليهود إلى تل أبيب) بحثاً عن نمط حياة أكثر تحرراً وعن العمل. لكن هذا التشبيه خاطئ ولا أساس له. لقد وجد في كل من القدس ويافا صراع مهم داخل نسيجهم الحضري، خاصة مع ظهور المؤسسات الحديثة وان البنية المجتمعية للمدينة أخذت تفسح المجال للتمييز العرقي والديني والطبقي. لقد ظهرت اختلافات هامة ما بين شروط المعيشة في المدينة القديمة المزدحمة والفقيرة و «القروسطية» والضواحي المنتظمة (وأحياناً المخططة) في الطالبية والقطمون والبقعة ويمين موشي ورحافيا. والأمر صحيح كذلك فيما يتعلق بيافا ومدينتها الصهيونية المنافسة تل أبيب. لكن التناقض خاطئ أساساً ومضلل، كونه يفترض نمطين من النمو الحضري يتصارعان مع بعضهما. ذلك أن مسار النمو الحضري خلال فترة الحداثة في فلسطين الخديوية والنابليونية، أظهر قدراً كبيراً من التكاملية وأنماط النمو المشترك في يافا والقدس. لقد ظهرت يافا كالمدينة الميناء بالنسبة للقدس، وذات الأهمية بالنسبة للتطور التجارة وطرق الحج وربطها بالتجارة المتوسطية. كانت صناعات الصابون في يافا، وغيرها من مصنعات الأغذية تعتمد على المنتجات الزراعية لجبال نابلس والقدس. كما أن صادرات الحمضيات اعتمدت على استثمارات أساسية قام بها مصرفيو يافا في ولايات البرتقال في اللد والرملة وغزة. إن وجود شبكة من الاعتماد الاقتصادي المتبادل لا ينفي وجود عملية استغلال وتفاوتات، لكنها كانت تباينات داخل هذه المدن ولبس بينها.

وبشكل مشابه فإن التعارض ما بين العلماني والديني ما بين يافا والقدس (الديني والمدنس) خاطئ أيضاً. نلاحظ في كلا المدينتين تديناً توفيقياً يظهر في الاحتفالات العامة للأولياء في مزاراتهم (النبي موسى في القدس، الخضر في اللد، والنبي روبين في يافا). كما نلاحظ أيضاً العلمنة المتزايدة للمشهد العام، المناقش أدناه، حيث بدأت المزارات الدينية والممارسات الدينية في البيئة الحضرية تفسح المجال لاحتفالات عامة أصبحت فيها العناصر الدينية أمراً رمزياً ذا تأثير معياري قليل على سلوك المشاركين. اخيراً نلاحظ التوظيف الوطني لهذه الاحتفالات حين أصبح الصراع ما بين الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية محوراً أساسياً للاستقطاب. لقد حدثت هذه التطورات الثلاث جنباً إلى جنب في كلٍ من القدس ويافا وعززت كل منهما الأخرى.

٥٠ *Misselwitz ,Philipp ,and Tim Rieniets .2006 .City of Collision. [New York]: Birkhűser ´Publishers for Architecture, p. 306-307.*

وكان ما ساعد على إيجاد هذا التناقض الخاطىء ما بين المدن «المقدسة والمدنسة» هو كون القاعدة الاقتصادية للتشغيل في القدس ترتكزعلى الأوقاف الدينية والحج، بينما كانت القاعدة الاقتصادية ليافا هي الرأسمالية الزراعية والتجارة والعمل المصرفي.

راغب بيك : نموذج للمُخطِّط الحضري العثماني.

يوفر لنا راغب بك النشاشيبي (١٨٨٢- ١٩٥١ م) مثالاً واضحاً لوجيه فلسطيني جمع بين عمله السياسي والمهني كمصلح حضري وقام من خلال وظائفه المتعددة بربط الفترة العثمانية المتأخرة بحقبة الانتداب. بعد دراسته الهندسة والتخطيط الحضري في جامعة القسطنطينية (كما كانت تسمى وقتها)، وتخرجه عام ١٩٠٨ م، أصبح النشاشيبي مهندس المتصرفية والمدينة في بلدية القدس (١٩١٢ م) ومسئولا عن الأشغال العامة في المدينة ومحيطها. عام ١٩١٤ انتخب في مجلس المبعوثان العثماني نائباً عن القدس.[٥١]

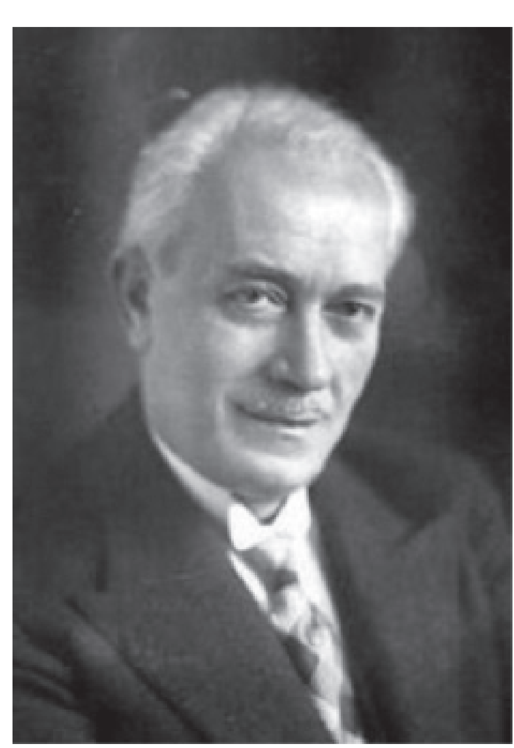
حسب سيرة حياته التي كتبها ناصر الدين النشاشيبي، والمتسمة بشيء من المبالغة، فقد كان راغب بك نموذجاً لجيل جديد من السياسيين التكنوقراط. كمهندس منطقة في القدس فقد «كان أيضاً مسئولاً عن إعادة بناء بئر السبع كبلدة عثمانية حدودية. ولاحقاً وكرئيس لبلدية القدس فقد برع كمخطط ومنظم... معظم مظاهر القدس الحديثة يعود له كما عدد من أفضل بناياتها، بما في ذلك بناية البلدية.» قال عنه رونالد ستورس الحاكم العسكري للقدس بعد الحرب، «كمخطط كان من غير منافس، هذا دون مؤهلاته الأخرى بشكل كلي.» خلال الانتداب خدم النشاشيبي كأطول مدة لرئيس بلدية منتخب للمدينة (١٩٢٠- ١٩٣٤ م) حيث أعقب موسى كاظم بك الحسيني وفي عام ١٩٣٤ م أصبح قائد حزب الدفاع الوطني المعارض. مثل راغب بك أعضاء من النخبة الفلسطينية المالكة للأراضي والتي زادت أهميتها في الفترة العثمانية المتأخرة وتعززت حظوظها المهنية والسياسية تحت الانتداب.[٥٢]

٥١ Nashāshībī, Nāṣir al-Dīn. 1990. *Jerusalem›s other voice: Ragheb Nashashibi and moderation in Palestinian politics, 1920-1948*. Exeter: Ithaca Press, pp 14-15. See also entry for Ragheb Bey Nashashibi, in ʻAbd al-Hādī, Mahdī. 2006. *Palestinian personalities: a biographic dictionary*. Jerusalem: PASSIA.

٥٢ Khoury, Philip S. 1987. *Syria and the French mandate: the politics of Arab nationalism, 1920-1945*. Princeton, N.J.: Princeton University Press.

في منصبه كمهندس ومخطط للمدينة كان هاجسه الأول تأمين مصادر المياه للقدس ومحيطها. كانت قضية المياه مشكلة مزمنة للقدس، فقد ارتبطت تاريخياً بالبقاء والأمان المادي للمدينة المسورة، ولأن الغزاة كانوا قادرين على قهر دفاعاتها من خلال الحصار لفترة طويلة مما يمنع المدينة من الوصول إلى مصادر المياه في سلوان ومنطقة بيت لحم. في سبعينيات القرن التاسع عشر كانت البلدية قادرة على إصلاح قنوات المياه المهدمة الممتدة من برك سليمان جنوب المدينة من أجل توفير مياه صالحة للشرب. يشير المهندس فرنجية، مدير الأشغال العامة في فلسطين، في تقرير أعده عام ١٨٩٤م إلى قيام حاكم القدس عزت باشا بترميم البرك وقنواتها باستخدام أموال دافعي الضرائب وباستخدام العمل الإجباري للفلاحين كما يبدو.[٥٣] عام ١٨٩٤ م تم البحث عن مصادر بديلة لإمدادات المياه بما فيها عين فارة وعين الفوّار شمالي المدينة وأيضاً العرّوب قرب الخليل.[٥٤] بدأ النشاشيبي خلال فترة عمله كمهندس للمدينة بتطوير الخيارين الأولين واستمر في متابعة المشروع خلال توليه رئاسة البلدية عام ١٩٢٠ م لكنه لم يكتمل حتى عام ١٩٣١ م.[٥٥]

كانت مسألة التمثيل اليهودي والمعايير اللاحقة المتعلقة بتخطيط المدينة مجالاً رئيسياً للصراع خلال فترة رئاسة النشاشيبي للبلدية. كان هناك فصل بين سكان المدينة العثمانيين وغير العثمانيين تحت الإدارة العثمانية، وكانت قضية التمثيل محلولة من خلال حصر التصويت والتمثيل البرلماني بالمواطنين الأصليين. مع نمو أعداد المهاجرين اليهود إلى القدس بمعدلات كبيرة أصبحت حدود البلدية ميداناً متنازعاً عليه لكل من قضيتي التمثيل في مجلس المدينة ورسم حدود البلدية لتشمل التجمعات اليهودية المنعزلة. في الحالة الأولى كانت المسألة فيما إذا كان يجب ضم أو عدم ضم السكان اليهود غير العثمانيين إلى حدود البلدية كجزء من الامتياز، وفي الحالة الثانية تتعلق المسألة بتخطيط الحدود.[٥٦] في كلا الحالتين كان على النشاشيبي (ومن قبله رئيس البلدية حسين الحسيني، آخر رئيس للبلدية في العهد العثماني) أن يسير في حدود ضيقة تفصل بين الخط الرسمي القاضي باستيعاب الحقوق المدنية للسكان اليهود وبين معارضتهم للمشروع الصهيوني.



راغب النشاشيبي. المصدر: مؤسسة الدراسات.

النزهة العامة ولعبة كرة القدم: قراءة المشهد العام الجديد من خلال ثلاث صور

بعيداً عن المناسبات الدينية (وأبرزها احتفالات النبي موسى وسبت النور) والتي كانت تبدأ من ساحة المسجد الأقصى وكنيسة القيامة على التوالي، فإن الاحتفالات الرسمية العامة كانت تقام في أراضي القلعة الامبراطورية بجانب بوابة يافا. كان إعلان عام ١٩٠٨م ومسيرات «الحرية» التي رافقتها نقطة تحول في هذه التجمعات العامة، منهية سنوات من الحظر فيما يتعلق بالتجمعات العامة الشعبية. لدينا توثيق واضح لهذه المظاهرات سرده الحاكم علي إكرام بك لشقيق زوجته في ٢٤ تموز ١٩٠٨ م. مباشرة بعد إعلان الدستور الجديد في السراي الحكومي، كتب إكرام أن جماهير القدس «أرادوا أن يعبروا عن فرحتهم باستعادة الحرية. يوم أول امس كان هناك تجمع في الميدان أمام القلعة الامبراطورية [»كيسلاي الهومايون»]. ارتفعت أصوات الفرحة في مدينة القدس، التي لا مثيل لها في العالم من حيث تنوع الأديان والمجتمعات والأعراق التي تحتويها، إلى السماء بألف لسان وطريقة مختلفة. ألقيت الخطابات وعمت المصافحات. نظمت المسيرات. باختصار تم القيام

٥٣ Lemire, op. cit. p. 12.

٥٤ Lemire, p. 18; Nashashibi, p. 23.

٥٥ Nashashibi, 22-30.

٥٦ لمناقشة التدخل الإداري الإثني كأداة للطعن في الفضاء الحضري في التاريخ المعاصر للقدس راجع:
Dumper, Michael. 1997. *The politics of Jerusalem since 1967*. New York: Columbia university press; pp. 63-64.



رئيس بلدية القدس (راغب بيك) في مناسبة افتتاح مشروع مياه الفوار عام ١٩٣١. المصدر: ماتسون.

بكل الأشياء الملائمة لتكريم الحرية. لاحقاً سار الناس حول القدس حتى المساء برفقة العرض العسكري. تم تزيين المدينة بكاملها بالأعلام. وكانت تسمع صرخات «يحيا الوطن»، «تحيا الحرية»، «يحيا السلطان» في أقاصي المدينة .... بيننا كان الأعضاء البارزين من «جمعية الاتحاد والترقي» في القدس.[٥٧]

بالتوازي مع هذه التعبيرات عن التجمعات العامة شهدت حواضر فلسطين تحولاً آخراً للمشهد العام خارج سياق النشاطات الاحتفالية التي بمكن إعادتها إلى تغير ملموس في نمط الحياة. أعتقد أنها ترتبط بانتقال السكان إلى ضواحي خارج المدينة القديمة وإيجاد أنماط جديدة من النشاطات الترفيهية لها جذور سابقة في التقاليد الدينية. هذا التحول في الفضاء المادي الجديد يمكن استخلاصه من ثلاث صور توضيحية. تمتد هذه الصور بين بداية ونهاية الحرب العالمية الأولى وتنقسم إلى حقبتين امبراطوريين متتابعين هما نهاية الحكم العثماني وبداية الإدارة البريطانية الاستعمارية فالانتدابية. تم التقاط هذه الصور حوالي الأعوام ١٩١٠ و١٩١٢ و١٩٢٠ م ورغم أنه يفصلها عن بعضها عقد كامل، فقد تم التقاطها في أماكن تفصلها مسافة أقل من نصف كيلو متر كل عن الأخرى. هذه الأماكن هي باب الساهرة وخارج باب الخليل قرب الأطراف الغربية للمدينة القديمة، وفي الشيخ جراح على طريق نابلس. لقد شهدت المناطق الثلاث شمال وغرب المدينة المسورة أول التوسعات الحديثة لسكان الطبقة الوسطى خلال التوسعات الجديدة في سبعينيات القرن التاسع عشر.

تعود الصورة الأولى إلى مجموعة واصف جوهرية وقد التقطت حوالي عام ١٩١٠ م وتظهر حدثاً رياضياً، وهو مباراة كرة قدم، بجانب مقبرة باب الأسباط. يحيط بملعب كرة القدم فلل باب الساهرة ووادي الجوز، حيث بدأ أعيان المدينة بالانتقال من المساكن المزدحمة في البلدة القديمة كنتيجة لتحسن الأمن الناتج عن التجديدات التي قامت بها البلدية من خلال توسيع الشوارع وتوظيف حراس لها وإنارتها.

تشير الصورة الثانية التي التقطت عام ١٩٢٠ م تقريباً إلى ما سُمي ب"تجمع الربيع السنوي الخاص باليهود والمسلمين والمسيحيين قرب بداية طريق نابلس."[٥٨] التقطت هذه الصورة في الشيخ جراح وتظهر عدداً من الرجال والنساء يتجمعون وتحركون ببهجة بين اشجار الزيتون في يوم ربيعي صافٍ. ترافق هذه الصورة ذكريات القدس الخاصة بالحاكم البريطاني كيث روش. في استعادته للفترة عمله المبكرة كمفوض عام، حيث عرف باسم باشا القدس، يشكو روش من الطائفية المتطرفة التي اجتاحت إدارته للمدينة المقدسة.

٥٧ Kushner, David. 2005:224-225.

٥٨ Keith-Roach, following page 108.



الصورة الاولى: مباراة كرة قدم في ملعب باب الساهرة، ١٩١٠. المصدر: مجموعة واصف جوهرية، مؤسسة الدراسات، بيروت.

لقد أشار إلى فترة مبكرة من التوافق والوئام الاجتماعي في البدايات الأولى للحكم البريطاني. الذكريات مفعمة بإشارات إلى الصراع الطائفي الذي غذّاه جزئياً قصر النظر الاستعماري، لكنه يعود غالباً إلى ما يعتبره الطبيعة التعصبية للمجتمع الفلسطيني.[٥٩] يبدو أن الصورة المرافقة «رحلة الربيع» تشخص حالة الوئام الاجتماعي الأولى.

تحصر الصورتان فترة حرجة في التحول الحضري في القدس (وفلسطين) ظهر فيه وجود مشهد مدني عام جديد ناتج عن كل من تدخل الدولة (التخطيط والأشغال العامة وتمديد الكهرباء والأمن) وعن المبادرات الخاصة (التطوير البرجوازية للإسكان والانتقال خارج جدران القدس). يسمح سياق الفترة هنا بالقيام بقراءة تساؤلية لهذه الصور لفهم الحاجة الملحة لفضاء عام جديد في المدينة، والقطيعة مع المشهد الحضري الخاص بالعقود السابقة. المعالم المشتركة بين الصورتين هي ضرورة وجود فضاء «علماني» بعيد عن التقليد الديني واختلاط الرجال بالنساء خارج سيطرة المواكب الاحتفالية والخليط الجديد من ملابس الأطفال من كلا الجنسين، والأكثر أهمية، استنباط حيز جديد مديني للمتعة والتنزه.

في المثال الأول لدينا حدث رياضي وهذا تجديد بحد ذاته، كونه يظهر الناس في المدينة يشاهدون لعبة تنافسية بين فريقين متنافسين في أرض مخصصة لحدث غير ديني. من المفترض أن كل المشاهدين، إذا أخذنا بعين الاعتبار اتجاه نظراتهم، هم منخرطون بشكل مكثف في متابعة المباراة. وكما في الصورة الثانية فمن المؤكد أن الجمهور ينحدر من الطبقة الوسطى (يظهر هذا من الملابس). طراز الملابس هجين (خليط من المدنية العثمانية المتأخرة والنمط الأوروبي) ويظهر تنوعاً هاماً لدى كل من الرجال والنساء. تتراوح ملابس الرجال ما بين القمباز التقليدي واللفة (عمامة الرأس) إلى القبعات والبناطيل الأوروبية- لكن معظم الرجال يرتدون الطربوش. هناك عدد مهم من النساء في الصورة يرتدين الملابس الأوروبية لكن القليل منهن يرتدين الملاية التقليدية. وهذا غالباً علامة على مكانتهن البرجوازية. حتى نعرف قيمة هذا العامل الطبقي يجب أن ننظر إلى صورة ثالثة التقطت خلال نفس الفترة داخل المدينة في ميدان عام يعطي فيها وجود حشد أكبر من عامة الناس صور أكثر «تمثيلاً» لنمط الملابس العام في تلك الفترة. المناسبة في هذه الحالة هي وصول الكسوة (الغطاء المزخرف للكعبة المشرفة في مكة) من الحجاز عام ١٩١٤ م (صورة رقم ٣). خرجت جماهير القدس وفلاحو القرى المجاورة ليحيوا مفتي القدس والمتصرف العثماني اللذين يرافقان الكسوة. هنا يرتدي أغلب الرجال والنساء القنابيز والملايات باستثناء قلة يرتدون القبعات أو الفساتين الأوروبية. يبدو تنوع أغطية الرأس أغنى هنا

٥٩ Keith-Roach, Edward, and Paul Eedle. 1994. *Pasha of Jerusalem: Memoirs of district commissioner under the British mandate*. London: Radcliffe Press. See especially, pp. 147-151.



الصورة الثانية: شطحة الشيخ جراح، ربيع ١٩٢٠. المصدر: كيث روش، باشا القدس.

منه في الصورتين السابقتين ويعطينا مؤشرات واضحة عن الخلفية الاجتماعية للرجال الموجودين ضمن الحشد. فبعيداً عن الجنود العثمانيين بأزيائهم النظامية الرتيبة نلاحظ أن أفندية المدنية يرتدون الطرابيش والفلاحين يرتدون الحطات واليهود الأشكناز الأوروبيين يرتدون القبعات الأوروبية و»اليهود العرب» يرتدون الطربوش المغربي-التونسي. أما العمامة (غطاء راس ديني) فيرتديها رجال الدين المسلمين فقط. هنا أيضاً نلاحظ خليطاً مهماً من الرجال والنساء في فضاء عام.

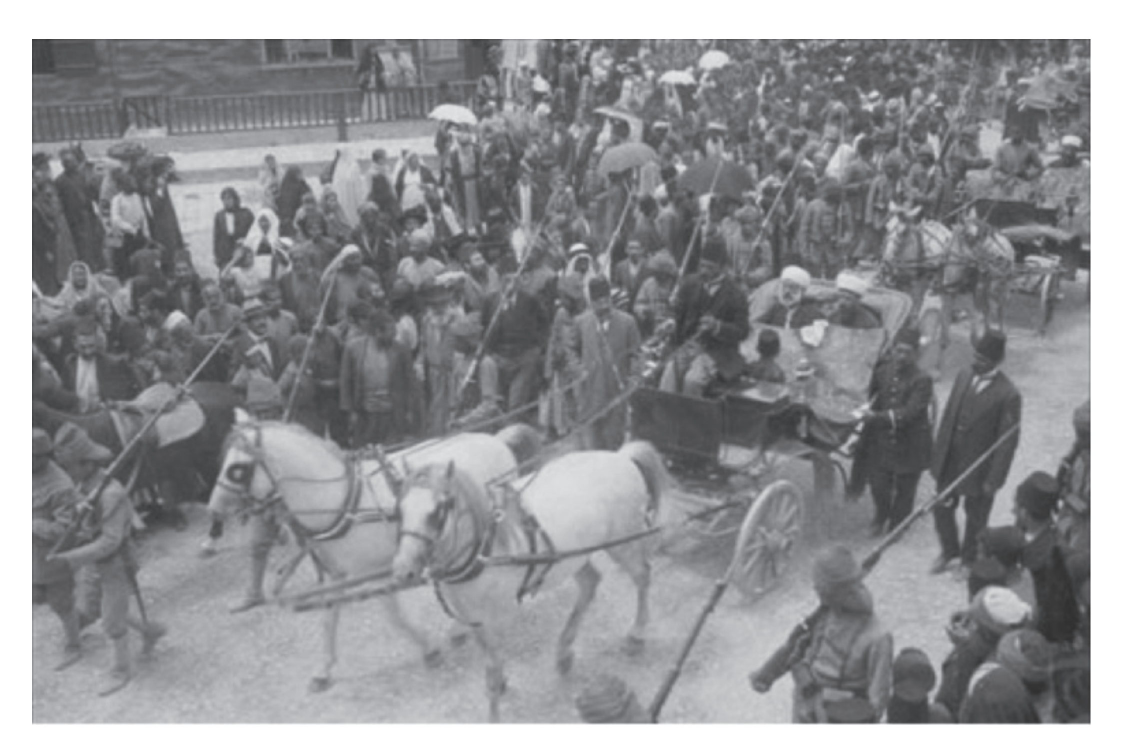
لكن هناك تناقضات أساسية مع صورة «لعبة كرة القدم» وصورة «الشيخ جراح»، فكلاهما يظهران الفضاء الترفيهي الجديد. أما هنا فلم يعد من الممكن تمييز نوع اللباس وارتباطه بأي انتماء ديني. في الصورة رقم ٢ يبدو خليط الجنسين أكثر حرية واسترخاءً، مما يشير على إلى ظهور نمط حياة برجوازي مشترك جديد. لقد تبنت معظم النساء في الصورة الثانية أنماطاً من الملابس الأوروبية بينما كان معظم الرجال ما يزالون يرتدون الطربوش. خلال عقد واحد فقط بعد مباراة كرة القدم (١٩١٠ م) نلاحظ أن معظم رجال الطبقة الوسطى أصبحوا الآن (١٩٢٠ م) حاسرين. سأفحص الآن سياق هذا التحول من خلال الملاحظات الإثنوغرافية.

فضاء الترفيه وعلمنة المشهد العام

تقدم لنا الرواية الأنثروبولوجية المعاصرة تفسيراً واضحاً للتغيير الذي طرأ في الصور الفوتوغرافية موضع النقاش هنا. وكما ذكرنا فإن صورة مباراة كرة القدم تعود إلى مجموعة واصف جوهرية. لقد جمع واصف جوهرية عدة آلاف من الصور في شبابه، من الفترة العثمانية المتأخرة والفترة المبكرة من الانتداب وذلك لتوثيق الأحداث المعاصرة التي شهدها، [٦٠] وذكرياته التي ترافق هذه الصور، هي بشكل أساسي سجل لحداثة القدس في العهد العثماني المتأخر.[٦١] قدّم جوهرية وصفاً مستفيضاً للاحتفاليات الدينية لكل تجمعات الطوائف والأحياء المختلفة في المدينة المقدسة. كما قدم رواية غير عادية لما يمكن تسميته بالتقاليد الحضرية التركيبية- بالتحديد،

٦٠ موجود في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت. تم نشر أجزاء كبيرة من هذه المجموعة في:
Khalidi, Walid. 1984. *Before their diaspora: a photographic history of the Palestinians, 1876-1948*. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies; and in Sanbar, Élias. 2004. *Les Palestiniens: la photographie d›une terre et de son peuple de 1839 à nos jours*. Paris: Hazan.

٦١ جوهرية، واصف. **القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية ١٩٠٤-١٩١٧**. تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار. مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٣.



الصورة الثالثة: كسوة الكعبة المشرفة تصل الى باب الخليل في طريقها الى المدينة المنورة. ١٩١٤. المصدر: مجموعة ماتسون.

اشتراك احتفالات كل طائفة أو حي في مهرجانات جيرانهم (اليهود والمسيحيون والمسلمين) . يمكن استخدام هذه الروايات بشكل مثمر في فهم عملية خلق ثقافة حضرية مركبة ما قبل الحداثة خاصة بالاحتفاليات المشتركة، بينما يتم الاحتفاظ بالحدود المجتمعية الخاصة بالملل المنفصلة سكانياً واجتماعياً. على كل حال فمن خلال هذه الروايات يمكننا ملاحظة نشوء ممارسات جديدة في مطلع القرن تذهب إلى ما أبعد من التركيب، باتجاه نشاطات اجتماعية مشتركة، ترتبط بأصولها الدينية بينما تتحول إلى مدنية (ولا أقول علمانية) في الممارسة. تظهر أربع احتفاليات عامة مهمة هذا التقدم باتجاه الفضاء المدني: عيد ستنا مريم (٣١ تموز- ١٥ آب حسب التوقيت المسيحي الشرقي)، عيد شمعون الصدّيق (الشطحة اليهودية)، نزهة الصيف في سعد وسعيد (نزهة يومية في تموز وآب)، موسم النبي أيوب (شطحة بئر أيوب في نيسان). حتى هذه الفترة كانت التجمعات العامة ظاهرة حضرية فقط، تقتصر فقط على الصفقات التجارية (كسوق الماشية يوم الجمعة،) أو المواكب الاحتفالية الدينية، أو ثالثاً، التجمعات الخاصة بالمجندين العسكريين في وقت الحرب.

شطحة ستنا مريم

علق جوهرية بما يلي حول الطقوس القديمة: «لقد كانت كلها مبنية على انتماءات دينية، ومن دونها كان سكان المدينة سيموتون حزناً، لأنهم اعتادوا جميعاً على العيش داخل أسوار المدينة القديمة، ويغلقون أبواب المدينة عند غروب الشمس. ولأن المدينة كانت مكاناً مقدساً بشكل خاص فقد كان يحتشد في كل مكان فيها الأديرة والكنائس والمساجد والزوايا والكنس، دون أي ماء أو نبع أو نهر ذي قيمة. ودون وجود بحر أو مناطق مشجرة. لذلك كانت هذه المواسم المتنفس الوحيد لسكان القدس.»[٦٢] ومن بين هذه المهرجانات كان الأكثر أهمية احتفال مريم العذراء. كان يتم الاحتفال به ما بين ٣١ تموز و١٥ آب حسب التقويم الأرثوذوكسي. كانت عائلات القدس تقيم في خيم قرب ضريح العذراء على المنحدرات الشرقية لجبل الزيتون، قرب وادي كيدرون. كان التركيز الرئيسي خلال الأسبوعين المقدسين على المجاملات الاجتماعية المسائية وتبادل المشروبات والطعام. بعد نهاية صوم العذراء يبدأ الاحتفال بالفرق الموسيقية وتناول الكحول (النبيذ والعرق بشكل أساسي). « في منتصف المخيّم تشعر وكأنك في حفل زفاف. حيث تسمع تسمع أغاني الشوباش من الرجال (وهي أغنية

٦٢ المصدر نفسه. ص. ٥٤-٥٥.

راقصة) تليها زغاريد النساء. وعندما ينهي الرجال هذه الأغاني، يبدأ الشبان بإطلاق النار في الهواء من المسدسات والبنادق، ويستمر هذا الأمر حتى منتصف الليل. وفي النهار يعود أصحاب المتاجر والعمال ورجال الدين إلى أعمالهم ويعودون [إلى المخيم] مساءً».[٦٣]
تكون ذروة هذه الاحتفالات يوم البرامول (مساء عيد مولد العذراء، الذي يوافق ١٥ آب حسب التقويم الشرقي). طوال يومي ١٤ و١٥ آب، تقدم الفرقة الموسيقية العسكرية العثمانية عروضها للعامة بينما يقيم المتصرف ووجهاء المدينة مأدبة في الخيمة الرئيسية. (ليس لدينا تسجيل لمحتوى هذه الموسيقى لكن من وصف جوهرية يبدو من الأرجح أن تكون فرق مهتير العسكرية). بينما كان أساس المحتفلين أعضاءً من المجتمع المسيحي الأرثوذوكسي فإن تركيبهم بدأ يتغير بعد عام ١٩٠٠ م تقريباً. وبحسب جوهرية، فقد بدأ مسلمون ويهود بالانضمام إلى الاحتفالات في هذه الفترة، حيث اتسع بعدها من منحدرات الجبل حتى باباالأسباط. على جانبي الشارع كانت تثبت مقاهٍ موسمية ومنصات موسيقية ونقاط بيع للأدوات الموسيقية (بشكل رئيسي آلة الفلوت والدربكّة) وكانت توجد ساحات للعب الأطفال.[٦٤] بعد وقفة عيد العذراء يكتسب المحتفلون شخصية ذات طابع ديني أكثر، تبرز من خلال آلاف الحجيج الروس الذين يتدفقون إلى المكان ويشاركون في تسعة أيام من الحج إلى مقام مريم العذراء حفاة الأقدام. هذه المواكب كان يترأسها الكهنة الأرثوذوكس حاملين تمثال العذراء. يضيف جوهرية:» لقد كان هذا المهرجان مساوياً لبحرنا ولمنتزهنا العام ومقاهينا وكبريهاتنا، كلها مجتمعة في حدث واحد.»[٦٥]

شمعون الصدّيق

كان اليهود الشرقيون والعرب يحتفلون بمهرجان سمعان العادل (شمعون هاتصيدق) في الشيخ جراح قرب أرض وقف أبو جبنة. كان هذا الاحتفال يتم مرتين في العام، حسب جوهرية، عندما انضم المسيحيون والمسلمون للمجتمع اليهودي الشرقي في احتفال عام يعرف بالعربية بشطحة اليهودية («الرحلة اليهودية»). بالنسبة لهذا التجمع فقد كان المحتفلون يشاركون طوال اليوم بموسيقى أندلسية تحتوي على تراث مشترك من الموشحات. كان عدد من الموسيقيين يقومون بالأداء وقد حدد جوهرية من بينهم العازفين الأساسيين «حاييم عازف العود والكمان (الكمان المحلي)، وزكي الحلبي مغني الموشحات وقارع الدف، ونساء منالجناكي»لم يذكر أسماءهن.»[٦٦]

الشطحة الدائمة في الشيخ جراح

كانت نزهة سعد وسعيد هي الحدث الوحيد في القدس الذي يعتبر احتفالاً عاماً خالٍ من أي سمة دينية أو وطنية/رسمية. من الواضح أن هذا الحدث برز مع توسع ضاحية المصرارة الجديدة وتحسن الأمن العام في المدينة. يحدد مكان الاحتفال بأملاك دوزدار التي تنتهي بكروم الزيتون الخاصة بحسن بك الترجمان- التي يحدها طريق نابلس شمالاً. عرّف جوهرية هذا الحدث «كحدث دائم» (أي طوال العام)، تجلب فيه العائلات المشاركة الطعام والشراب بما فيه الكحول ليريحوا أنفسهم من احتقان المدينة القديمة.[٦٧]

شطحة بئر أيوب ووصلة الاحتفاء بالنبي موسى

بئر أيوب هو نبع ذو موقع جيد في المنحدرات الشرقية لضاحية سلوان التابعة للمدينة. يشكل فيضان النبع سيلاً باتجاه البحر الميت في المواسم الجيدة. كان المقدسيون يحتفلون بنهاية الشتاء بزيارات جماعية إلى النبع. كانت أحدى مساوئ موقع هذا النبع هو قربه الشديد من أنابيب المجاري الخاصة بالقدس والتي تمتد من المخارج المغطاة القريبة من أسوار المدينة شرقاً باتجاه قرية سلوان. كتب جوهرية «تخيل أيها القارئ العزيز، رجالاً ونساءً يركبون الحمير ويحتفلون بالربيع على كلا جانبي مصب الماء- والذي كان بالنسبة للمقدسيين نهراً افتراضياً كبيراً. كانوا يأخذون طعامهم في سلال ويخيمون في المكان. عند وصول أنابيب المجاري إلى تكون قد أصبحت مكشوفة. هناك كنا... نحتفل ونغطس أقدامنا في الماء النقي (الماء الزلال) القادم من بئر أيوب والمحاط بنهر أكبر من المجاري و«عطورها» الفافذة. ليس لدي شك بأن أي مقدسي نشأ مع ذكريات بئر أيوب قد استمتع بالمشهد والرائحة النتنة التي تنبعث لتصبح جزءً أساسياً منه.»[٦٨]
وصلت ذروة هذه الاحتفالات بوصل مواسم القدس

٦٣ المصدر نفسه. ص. ٥٥.
٦٤ المصدر نفسه. ص. ٥٥-٥٦.
٦٥ المصدر نفسه. ص. ٥٦.
٦٦ المصدر نفسه. ص. ٧٤.
٦٧ المصدر نفسه. ص. ٧٥.
٦٨ المصدر نفسه. ص. ٧٥-٧٦.

بموسم النبي موسى في نهاية فصل الربيع، والذي تميز عن مواسم القدس ويافا بكونه احتفالاً إقليمياً جمع بين أقاليم الخليل والقدس ونابلس، وتحول لاحقاً إلى مناسبة «قومية». كما كان هناك إحساس بتشكل هذا الفضاء «المدني» الجديد في تطورات الإنشاءات المدنية الجديدة التي رعاها بشكل واضح جمهور القدس وبدرجات مختلفة في عدد من البلدان الإقليمية مثل يافا ونابلس وحيفا. شملت هذه الإنشاءات المنتزه البلدي وقاعة الموسيقى- المسرح والجادات المرصوفة بالحجارة بغرض المشي عليها و«الأوضة»- شقق العازبين التي استخدمت لتوفير الراحة لأبناء الطبقة العليا.[٦٩] أصبح تخطيط الكورنيش في بيروت وطرابلس ويافا على طول الشاطئ أمراً يحمل سمة فضاء المتعة العربي الجديد، والذي أخذ إلهامه من الإسكندرية.

في فلسطين والأقاليم السورية، كانت هناك نخبة مثقفة متعلمة جديدة تنظر بافتتان إلى سرعة التغيير الاجتماعي الذي جلبته هذه الحداثة وعززت من هذه الرؤيا التحضيرات للحرب العظمى. في أول كتاب نُشر حول تاريخ فلسطين المعاصر في القرن الجديد استعرض خليل طوطح وعمر صالح البرغوثي التغيرات الرئيسية التي جلبتها الضرورات التكنولوجية الخاصة بالحرب.[٧٠] فقد تم حفر آبار مياه على امتداد البلاد وتم تمديد أنابيب مياه لنقل المياه الصالحة للشرب منها إلى مراكز المدن الرئيسية. ربطت السكك الحديدية شمال البلد بحدودها الجنوبية، وربطت شبكة الهواتف والتلغراف البلاد بالعالم الخارجي. تم توحيد مكاتب البريد التي نشأت من خدمات القناصل الأوروبيين وتم استبدالها بالخدمات البريدية العثمانية، تم توسيع الطرق للسماح للتنقلات العسكرية والسيارات الكبيرة (الشاحنات والحافلات) بالتحرك. تم إنشاء المستشفيات العامة والعيادات والصيدليات في كل الأقاليم لمحاربة أوبئة الملاريا والكوليرا والتيفوس خلال الحرب. في هذه المشاريع الإنشائية كان مجندو «كتائب العمل التطوعي»، المعروفة «بطوابير الشغيلة»، أو ببساطة العمل الإجباري أدوات حاسمة. كان يتم تجنيد هؤلاء من بين السجناء المفرج عنهم أو من قرىً يتم اخيارها بالقرعة أو من بين صفوف فقراء المدن.[٧١] لقد ناقش طوطح والبرغوثي هذه التحديثات بنفس توقع التغيرات الكبرى القادمة. وعلى عكس عواطف الإداريين العثمانيين مثل حسن بك في يافا وإكرام بك متصرف القدس الذي شاركهم أيضاً ابتهاجهم لكنهم لم يشعروا أن الدولة العثمانية ستحافظ على هذه التطورات.

بئر السبع: التخطيط العثماني لحدود القدس السلطانية

تم تخطيط مدينة بئر السبع خلال فترة حكم اسماعيل كمال بك على أساسات مضارب سوق بدوي، وقصد بتأسيسها مقابل عمان في شرق الأردن أن تكون بلدة «حدودية» للتحكم بالقبائل البدوية غير المستقرة في جنوبي سوريا.[٧٢] لقد كانت هذه أول حالة في فلسطين «لمركز حضري مخطط له مسبقاً»[٧٣] كانت الأجندة التي تم على أساسها بناء المدينة الجديدة عام ١٩٠٠ حسب زينب جيليك هي «إيجاد سيطرة على القبائل البدوية المشتتة وغير المستقرة في المنطقة من خلال إيجاد مركز رسمي يمثل الدولة العثمانية ومن خلال البدء بتوطين السكان البدو غير المستقرين بنمط منتظم».[٧٤] تم اتخاذ قرار بناء المدينة في أعلى المستويات من خلال مرسوم سلطاني عام ١٨٩٩ بعد طلب أولي قدمه مجلس مدينة القدس.[٧٥] استحوذت الدولة الأرض لهذا الغرض وعينت المهندسين المعماريين المقدسيين سعيد وراغب النشاشيبي لتصميم البلدة الجديدة.[٧٦]

تسرد المؤرخة العثمانية ياسمين أفجي عدداً من الأهداف المرجوة لبناء البلدة الجديدة. وكان من أهمها استراتيجية قاضية بتعزيز ترتيبات أمن الحدود في منطقة القدس ضد التوسع البريطاني من مصر، وتهديداته لسيناء بعد عام ١٨٨٢. ضمن هذه الإستراتيجية تم التفكير بتوطين السكان غير المستقرين من البدو كطريقة لتعزيز وجود سكاني ثابت سيزيد

٦٩ لمناقشة «الأوضة» كمجال مديني راجع:
Tamārī, Salīm. 2009. *Mountain against the sea: essays on Palestinian society and culture*. Berkeley, CA: University of California Press, p. 90-92.

٧٠ البرغوثي، عمر الصالح، وطوطح، خليل، **تاريخ فلسطين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦. تم نشر الكتاب أصلاً في القدس عام ١٩٢٠ لكن الإشارات إلى الابتكارات التكنولوجية في الدولة العثمانية كتبت بالمعنى الحاضر، مقترحة أنه تم تأليف الكتاب خلال الإدارة العثمانية للقدس.

٧١ المصدر نفسه، ص. ٢٤٨-٢٥٢.

٧٢ للحديث عن عمان كبلدة عثمانية شركسية حدودية راجع:
Rogan, Eugene L. 1999. *Frontiers of the state in the late Ottoman Empire: Transjordan, 1850-1921*. Cambridge: Cambridge University Press.

٧٣ Avci Y. 2009. «The application of Tanizmat in the desert: The Bedouins and the creation of a new town in Southern Palestine (1860-1914)». *Middle Eastern Studies.* 45 (6): 974.

٧٤ Çelik, Zeynep. 2008. *Empire, architecture, and the city: French-Ottoman encounters, 1830-1914*. Seattle: University of Washington Press, 113-114.

٧٥ Avci, 972-973.

٧٦ Celik, p. 114.



التخطيط العثماني لمدينة بير السبع ١٩١٦، منتزه جمال باشا. المصدر: مجموعة ماتسون.

بدوره من دخل الدولة.[٧٧] وكان هناك هدف آخر هو فصل بدو النقب وإدارتهم عن منطقة غزة وإيجاد مركز جديد للتحكم فيهم تحت سلطة متصرف القدس، الذي يتبع بدوره مباشرة للآستانة.[٧٨]

لكن كان هناك هدفين آخرين مهمين: الأول تطوير آليات جمع الضرائب في نظام تسجيل أراض أفضل، وهو جزء أساسي من قوانين الأراضي لعام ١٨٥٨ والتي بحد ذاتها هدفت إلى رفع قاعدة الضرائب من منطقة النقب. أخيراً، كان تأسيس بئر السبع يهدف إلى خلق قاعدة للتحكم بالقبائل المتمردة في الجنوب.[٧٩] يقترح كل من غاردوس ونيمرود لوز زيادة في الاعتماد المحلي على الحكومة المركزية من خلال « التحكم المتزايد بالفضاء المديني» كسبب منطقي في السياسة العثمانية الخاصة بتخطيط هذه المدينة. أخيراً نرى في كل هذه المصادر أن البنية التحتية للوجود العسكري العثماني وتعزيز المصادر المادية والاقتصادية للجيشمع اقتراب التحضيرات للحرب الوشيكة شكل الخلفية السياسية لتطوير مدينة بير السبع.[٨٠]

تم تعيين الحاكم الجديد واختيار المهندسين أو المخططين واختيار المباني العامة للمدينةعام ١٩٠٣، على أعلى المستويات. اشتملت المباني العامة على السرايا (مبنى حكومي) ومستشفيات عسكرية ومدنية ومحطة شرطة ومدارس عامة ومسجد مركزي وكلية زراعية.[٨١] خلال بداية الحرب تسارع نمو بئر السبع لأنها كانت مركز الانطلاق لحملة السويس. وتم ربط المدينة مع شبكة طرق يافا القدس بالقطار (١٩١٥)، وبطريق معبد يربط بئر السبع بالخليل وتم إنشاء جسر جديد فوق وادي سابا.[٨٢] ثم جاء افتتاح منتزه جمال باشا العام وتم استخدامه للتجمعات الاحتفالية ولمخاطبة الإداريين العثمانيين للناس. وأنشئ مطاران عسكريان جديدان لخدمة المدينة والإقليم في الحفير وإبن (في صحراء سيناء). أتاح استخدام القوات الجوية العثمانية الناشئة والقوات الجوية الألمانية الحديثة للصور الجوية صوراً مسحية تظهر تقسيم المدينة على نمط شبكات مستطيلة والتي قد تكون استخدمت في تخطيط المدينة.[٨٣] عام

٧٧ Avci, p. 973.

٧٨ Avci, p. 973.

٧٩ Avci, p. 973-974.

٨٠ Luz, N. (2005), ‹The Re-making of Beersheba: Winds of Modernization in Late *Ottoman Sultanate› in I. Weissman, and F. Zachs (eds), Ottoman Reforms and Muslim Regeneration. Studies in Honor of Prof. Butrus* *Abu Manneh*. London and New York, I. B. Tauris: 197; Gradus, Y. 1977. ***Beer-Sheva, capital of the Negev desert: function and internal structure***. Ben-Gurion University of the Negev, David Tuviyahu Archives for the History of the Settlement of the Negev; 178-179.

٨١ Nimirod, p. 197, 200.

٨٢ Avci, 981.

٨٣ Nimrod, 199.

١٩١٦ جلبت القيادة العسكرية المطبعة الجديدة، والتي استخدمت بشكل أساسي للحشد العسكري، ومن بين مطبوعات أخرى استخدمت جريدة جوول («الصحراء») والتي خدمت القوات المسلحة في الجبهة الجنوبية. عام ١٩١٦ جلبت المطبعة على بئر السبع والتي من خلالها خدمت صحيفة جوول (الصحراء) القوات المسلحة في الجبهة الجنوبية بالكامل.

تم توضيح الخطط العثمانية الخاصة بالمدينة من خلال مذكرة كتبها المتصرف إكرام بك من خلال التركيز على تسجيل الاراضي كأساس لزيادة الدخل. في التقرير الذي كتبه للباب العالي يشير إلى أن البدو رفضوا تسجيل أرضهم خوفاً من الضرائب والتجنيد الإجباري. مما عنى أن أخذ التعداد السكاني وتخطيط الدولة سيتضرر. يقول المتصرف: «تقريباً لا يوجد رجل في بئر السبع لا يملك أرضاً. فكل رجل يملك قطعة أرض، مهما كانت صغيرة. بهذه الطريقة إذا تم تسجيل جميع قطع الأراضي، عندها سيتم تسجيل أسماء مالكيها [كذلك] وتسجيل أسماء الزوجة والأطفال أيضاً. باختصار، فإن تسجيل أراضي بئر السبع سيكون مفيداً من جميع وجهات النظر.»[٨٤] حافظ إكرام نفسه على صلة قريبة مع إدارة المدينة معيناً قائم مقامها، وبحيث أصبحت المدينة مركزاً لقضاء المنطقة برمَّتها.[٨٥]

وتذكرنا المعمارية التركية زينب جيليك حول السمات المميزة التي تفصل حقبة التخطيطات العثمانية الجديدة عن فترة ما قبل التنظيمات. خلال العقد الأول من القرن الجديد أخذنا بناء السلطنة في اتجاه جديد، «تم تقطيع الإقليم بطرق سريعة وخطوط سكك حديدية وتلغراف وجسور مما أوجد شبكة تربط التجمعات وتدمجها في نظام معين.»[٨٦] وقد تم خلالها إحياء مدن قديمة والتخطيط لمدن جديدة مثل بئر السبع التي بشرت بمقدم علاقات جديدة حداثية بين الآستانة والحواضر العربية في بلاد الشام.

عام ١٩٠٦ قام إكرام بتوجيه خطاب هام للمواطنين الجدد في بئر السبع أمام مبنى السرايا حيث قدم فيه السياسة العثمانية الجديدة في مزيج من الأبوية والنصح:

> حضرات المواطنون والوجهاء العرب
> أتوجه إليكم كأب وأخ لكم،
> ...إنّ أراضيكم واسعةً وخيِّرة، وبجهودكم
> تستطيعون زراعة كميات من القمح الجيد، مما
> يفيض عن حاجتكم، ويوفر الخيرات لأهالي بيت
> المقدس وكل سكان سوريا العزيزة.
> ويشرفني أن أنقل إليكم التوجيهات السلطانية
> الجديدة الخاصة ببئر السبع، والمكرمات التي
> منّ بها السلطان عليكم... نحن على وشك بناء
> مدرسة ضخمة لتعليم فن الزراعة لأبنائكم، لأنه
> ورغم كونكم أناساً متفانون في العمل إلاّ أن
> جهل العلوم الزراعية الحديثة تجعل من عملكم
> ناقصاً. في هذه المدرسة، سيتعلم أبناؤكم
> كافة العلوم الحديثة في الإنتاج الزراعي، كما
> سيتعلم أبناؤكم القرآن الكريم، وعلوم الشريعة
> والفقه والعبادات. وسنبني في بئر السبع برجاً
> وساعةً في الساحة العامّة حتى تكون مناراً لكم
> يرشدكم في الصلاة والعمل.

يعتبر الخطاب مثالاً جيداً على الطريقة التي بدأت فيها الإدارة العثمانية في فترة ما بعد التنظيمات تدخل السكان في السياسات المدنية، بينما في الوقت ذاته حافظت على مسافة حرجة من «الجماهير». بعيداً عن أي آثار للشعبويّة التي ارتبطت بنشاط حركة تركيا الفتاة في يافا والقدس في عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩ فقد عكس الخطاب الطريقة الحذرة التي نظرت بها السلطة للمدينة الجديدة كملاذللعناصر غير المنضبطة التي تبحث عن التمدن والتوطين. يمكن للمرء أن يشعر بآثار سياسة الإخاء العربي التركي الجديدة في الدفاع عن الدولة المشتركة التي تمت بلورتها عليها كمكون في الدولة العثمانية الجديدة الصاعدة.[٨٧] لكن الخطاب يكمل أيضاً سياسة توحيد مثلث المدينة العاصمة مع مدينة الميناء والثغر الجديد للأراضي الحدودية بئر السبع حيث التليغراف وخط سكة الحديد الحديثة البناء ومحطة القطار الكبيرة فيها والتي ستفتتح قريباً (عام ١٩١٥) بجلبة كبيرة على يد جمال باشا وحاشيته. يرمز البرج والساعة في إنشاءات القيادات العثمانية الجديدة إلى الحداثة الجديدة في فلسطين والأقاليم العثمانية- حيث أنشئت لتنظيم إيقاع «العمل والترفيه والعبادة».

الخاتمة

تشير الحداثة التكاملية الثلاثية لفلسطين العثمانية إلى العملية التي ظهرت فيها شبكة إقليمية حضرية في نهاية

---

٨٤ Kushner (2005) To Be Governor of Jerusalem, p. 195.

٨٥ Kushner (1996) “Ali Ekrem Bey”, p. 356.

٨٦ Celik, p. 115.

٨٧ في السيرة الذاتية التي كتبها ديفيد كوشنير لعلي إكرام بيه يربط الكاتب بين أنه رغم نزعته الأيديولوجية وكديموقراطي وليبرالي ولاحقا كمدافع عن الثورة الدستورية فإن إكرام بيه تحكم بشبكة من الجواسيس لمراقبة والتبليغ عن نشاط الوطنيين العرب. كما كان يكتب إلى الباب العالي في مناسبات عديدة موصيا بتعيين أتراك بدلا من مرشحين عرب في مناصب إدارية في فلسطين وسوريا. راجع:
Kushner (2005), *To Be Governor of Jerusalem*, p. 138-139.

القرن التاسع عشر في جنوبي سوريا والتي تمثلت في كم كبير من التخطيط للبنية التحتية (شوارع وسكك حديدية واتصالات بريدية وتلغرافية) والتي أنشأت نسقاً من الحدود الدفاعية للأطراف الجنوبية للسلطنة. ضمن هذا المثلث ظهر تقسيم إقليمي جديد للعمل لم يظهر من قبل: العاصمة الإدارية الإقليمية (القدس)، مدينة الميناء (يافا) التي تربط الإقليم بالتجارة الخارجية والحج، وبلدة الحامية الحدودية، بئر السبع. في كل مدينة، أنشأت السلطات العثمانية المركزية والمحلية معالم عامة جديدة عكست رؤية خاصة بحداثة اسطنبول مطبقة على الظروف المحلية. كانت المعالم العمرانية الاحتفالية مثل السبل والسرايا الحكومية والنصب التذكارية الخاصة بالتلغراف وأبراج الساعات صروحاً عثمانية منتظمة حاولت الاحتفال بالعظمة المركزية لدولة التنظيمات ودمج العواصم الإقليمية العثمانية في الوطن الأناضولي-العربي. تسارعت هذه المعالم وأعيد تعريفها مع انطلاق الحرب العالمية الأولى. كما قامت بدور كحلبات لنشر دعائم للحداثة السلطانية وإصلاحاتها الدستورية. خلال الثورة الدستورية عام ١٩٠٨ م والإثارة التي أعقبتها ضد الدكتاتورية الحميدية، أصبحت هذه الميادين مراكز للحشد الشعبي.

تمت مناقشة استخدامات الفضاء العام هنا بمعنى الرواية الدنيوية للممارسات الاجتماعية (المقاهي العامة والنزهات والتمشي في الشوارع والحفلات الموسيقية العامة) والتعبئة السياسية العامة (الإعلانات العامة وحملات التجنيد الإجباري والمظاهرات والاحتفالات العامة بالمناسبات). وفي مستوى أقل من الوعي تم إنشاء مشهد عام جديد في هذه المدن من خلال تحويل الاحتفالات والطقوس الدينية المشتركة إلى ممارسات دنيوية شعبية. فهذه الأمثلة على المواسم الحضرية مثل النبي روبين في يافا ومواكب مريم العذراء وشمعون الصدّيق في القدس يتم اختبارها من خلال عدسات التوافق الاحتفالي الذي تمت علمنته بواسطة تراجع عزلة المجتمعات السكان في المدينة القديمة. تسهم الرواية الإثنوغرافية حول مواسم الربيع (بئر أيوب والشيخ جراح) بفهمنا لهذا الإشراف والمهم وإعادة تعريف المشهد العام للمدينة في سنوات ما قبل الحرب.

عالجنا في هذه الدراسة الادعاءات حول إهمال العثمانيين للتخطيط الحضري التي انتشرت في فترة الانتداب وبعدها. كما غياب الاهتمام في تلك الفترة بإنشاء المناطق الخضراء والحدائق العامة في المدن الثلاث المدروسة مقارنة مع الحدائق السلطانية الضخمة التي أنشئت في بيروت وحلب ودمشق وإزمير خلال نفس الفترة. ليس هناك شك في هذا الإهمال لكن سياق هذا الغياب تم شرحه هنا في سياقه (انتشار المدن متوسطة الحجم جنوبي بلاد الشام)، وتغلغل كروم الزيتون والعنب وبيارات الحمضيات (في البلدات الساحلية) في داخل المدن. وممّا سمح بهذا الأمر بشكل كبير هو الانخراط العام في الزراعة الحضرية، فحتى العقد الأول من القرن العشرين كانت العلاقة بين سكان المدن و«الطبيعة» هي جزء من المشهد الحضري.

ترجمة علي موسى